التعريف بالأدب التونسي

رضوان إبراهيم

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس



نشـأ فى ريـف مصـر ، واتـم تعليمــه بالقاهـرة .

حصل علـى ليسـانس فى الادب ، ودبلوم فى التربيـة وعلـم النفس ، ودبلـوم فى الادب العربى المعاصر ، ودبلوم فـى اللغـة الروسيـة .

اشتغـل بتدريس الادب ، وتنظيـم المكتبـات .

الف سلسلة قصص للاطفال ، ومجموعـة قصص « جـراح شعـب » ، وكتـاب « ازمـة التعبير الادبى » ، وكتـاب « شعراء العرب المعاصرون »، و «تيسير مقدمة ابن خلدون»، وعشرات المقالات الصحفيـة والاذاعية فى الادب والنقـد والمجتمع ، وراسـل معظـم صحف واذاعات العالم العربى والمهاجر ، وله تجارب فـى الشعر الوجدانى .

ترجم عـن اللغة الروسيـة عشرات الكتب والبحوث . والمقالات الادبيـة والنقديـة والقصـص والاشعـــار .

عمل باحدى هيئات وزارة المالية والاقتصـاد والتجارة الخارجية .

تـوفى عـــام 1975 .

تقديم
بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو

عرفت المرحوم الاستاذ رضوان ابراهيم أولا بواسطة المراسلة سنة 1953 باشارة من صديق الشابى المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وفى صيف 1954 ، التقيت به لاول مرة فى القاهرة ، حيث كنا نحضر معا ندوة الشعر الاسبوعية التى ينظمها فى بيته الشاعر المرحوم محمد على الحومانى ، الذى كان قد ظفر باعجابى وتقديرى الخاص لقصيدة واحدة من شعره المنشورة فى مجلة الكتاب المصرية بعنوان« أنشودة الكون» ، والتى نظمها فى عيد جلاء القوات الاستعمارية الفرنسية عن سوريا ، وقد بشر فيها بجلاء مماثل لقواتهم عن تونس والجزائر والمغرب .

يقول فى طالعها :

يومك الضاحك فى نيسان أنسى
كل باك دمعه حتى فرنسا

ويقول :

نشطت جلق من أصفادكم
وستقفوها رباط وبلنسا

وستلتقـــي سفـــن أرســت علـــي
ثغـر بيـروت لـدى وهـران مرسـي
وسيصحـو القـدر اللاهـي بنـا
ويرى اللهـو بكـم أعـذب كاسـا
أيهـا البـاكي عـلى اندلـس
وعلـى تـونس هـون وتـأسـي
وثـب الضيغـم مـن مكمنـه
وانتهـى زمجـرة مـا كـان همسـا

وجدت في رضوان ابراهيم كل دماثـة خلق وشهامـة نفس ، وعزيز همة ، وكرم المعاملة وصدق القول وعميق الوفـاء للاخـلاء والاصدقاء . ومنذ سنـة 1953 لم تنقطع بيننا المراسلـة حتى آخـر لحظة من حياتـه .

ولعل صداقتي له هي الحافز الاول على اهتمامه النشيط بالادب التونسي الحديث ، ويكاد يكون الكـاتب الوحيد في الشرق الذى عايش الادب التونسي ومارسه قراءة وعلاقات شخصيـة مع العديد من أدبائه حتى أمكن له ان يكتب عنه البحوث والمقالات والاحـاديث المختلفة للصحف والمجـلات وللاذاعات العربيـة ، ثم تخصص في الترجمـة مـن الروسيـة الى العربيـة ، فكـان اهتمامـه منصرفـا بالدرجة الاولى الى ما يكتب عن تـونس وأعلامها وأدبهـا في الكتب والمجلات الروسيـة .

وله فضل السبق والعنايـة بما كتب أو نشر في روسيا مـن دراسات وكتب عن الادب التونسي ورجالاتـه .

وقد سبق له أن ترجم كتيبا عن الادب التونسي عهـد بنشره الى الدار التونسية للنشر منذ عام 1971 ، وتعاقد معها على ذلك عام 1973 ، حيث كان لي شرف دعوته الى تـونس للمشاركة في أعمال المؤتمر التاسع للادباء العرب .

وكان لى أيضا شرف نشر أول دراسة ترجمها من الروسية عن ابن خلدون فتم طبعها بتونس عام 1974 تحت عنوان « نظريات ابن خلدون » ، وهى من تحرير الدكتورة سفيتلانا باتسييفا .

وقام رضوان ابراهيم بترجمة اضخم كتاب صدر فى روسيا عن ابن خلدون لنفس المؤلفة ، هو « العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون » ، وتتولى الآن الدار العربية للكتاب طبعه ليصدر قريبا فى سلسلة مكتبة ابن خلدون .

بعد عودة رضوان من تونس الى القاهرة ربيع 1973 شرع يرسل لى مجموعة من المؤلفات والاحاديث التى يترجمها من الروسية، أو يكتبها للمجلات والاذاعات العربية للتعريف بالادب التونسى ، وخاصة ما ينشره الادباء التونسيون من كتب فى القصة والشعر والدراسات الادبية .

وقد تجمع عندى من هذه المقالات الموضوعة والمترجمة عدد كبير ، وكان الكاتب نفسه قد اختار لها عنوانا لينشرها تحته وهو « التعريف بالادب التونسى من خلال مطبوعاته » .

ونظرا لقيمة هذه المقالات ، لا سيما ما ترجمه من الروسية ، ونظرا لعلاقتها الوثيقة بحركة التأليف والتطور الادبى فى تونس .

وتحية لكاتبها واعتزازا بنضاله الذى استغرق ربع قرن فى خدمة الادب التونسى من المشرق العربى ... رأيت أن تجمع فى كتاب ـ كما كان ينوى كاتبها ـ وأن تعطى نفس العنوان الذى اختاره لها ، وان تبوب الى ثلاثة أبواب رئيسية :

الاول ـ ما ترجمه عن الروسية حول الادب التونسى .

الثانى ـ ما كتبه عن مؤلفات الشابى أو الكتب التى كتبت عنه .

الثالث ـ حول مؤلفات تونسية أخرى .

واضفت الى ذلك كله مجموعة من التعليقات والهوامش حيث كان ذلك ضروريا . غير أني خصصت بحث « التجديد في الادب التونسي » الذى ترجمه عن الروسية بطائفة كبرى من التعليقات والملاحظات والتصويبات التى رأيت ان بدونها لا يستساغ نشر مثل هذا البحث المطول في كتاب مثل هذا .

فالبحث على أهميته وجهد صاحبه الكبير ، محشو باخطاء فادحه ، وأوهام وقع فيها الكاتب الروسي نتيجة تسليمه المفرط بما يراه في مصادره أو بسبب القراءة العاجلة .

واعتقادى ان هذه الهوامش وتلك التعليقات هى بمثابة المساهمة الاخيرة في تبصير القارىء لهذا البحث بكل الحقائق الناصعة والصحيحة عن أطوار الادب التونسي ورجاله ومختلف المؤثرات والتيارات التى احتوى عليها .

ومهما يمكن من أمر .. فان هدفنا الاول والاخير من نشر هذا الكتاب وجمع شتاته هو خدمة الادب العربى في تونس والتنويه بشخصية أدبية عربية كرست نصف عمرها في خدمة أدبنا والاشادة به والكتابة عنه .

وآثار هؤلاء الرجال النزهاء ، المناضلين حقا من أجل شرف الكلمة ومجد الادب ، جديرة بالاحياء والنشر والاهتمام والتقدير .

ولا نملك أمام مصابنا بفقد المرحوم رضوان ابراهيم سوى الوقوف بخشوع اجلالا لذكراه وتمجيدا لنضاله، وترحما على روحه .

وان خير تحية تزجى له ، وخير عرفان يقدم اليه والى السيدة زوجته الفاضلة وأسرته الحزينة هو نشر كتبه وزيادة تعميمها بين القراء في كل مكان وزمان .

لم يكن رضوان ابراهيم حين توفي عام 1975 قد جاوز الخمسين

من عمره الا قليــلا . ومع ذلك تــرك عددا كبيرا مــن الكتب المؤلفــه والمترجمة ، ومئات المقــالات والبحوث المتناثــرة فى مجلات وصحف العالــم .

واننا سنحاول نشر ما يتيسر لنا منها ، لا سيما ما لم يسبــق نشره حتى تصان من الاهمال والضياع .

ونحن على يقين بان ما احتوى عليه هذا الكتاب ليس الا جــزءا قليلا مما كتبه عن الادب التونسي ، ولعلنا نستطيع استكمال الباقى فى طبعة قادمة .

كما نرجو ان نتمكن من نشر بقية آثاره المخطوطة الاخــرى وان نعيد طبع عدد من كتبه السابقة ، وفى طليعتها مختاراته من مقدمة ابن خلدون ، ومجموعاته القصصيــة وما ترجمه عن القصة المصريــة وطه حسين وأمين الريحانى .

وعسى أن نرى قريبــا كتابه المترجم عن الادب التونسى الــذى مــات وهو يتحسر ويشكو من تاخــر نشره ، وهو الحــريص ـ لحبــه لتونس وأدبها ـ أن يراه مطبوعا فى دار نشر تونسية .

ومقابلة الوفاء بالوفاء عملة نادرة فى بلادنا وفى عالمنا الثالث . ومع ذلك فان أملنــا فى انتصار الحق والخيــر والعدل ، وفى سيطــرة النزاهة والانصاف والوفــاء على النفوس مع تطـور العقـول ويقظـة الضمير القومى ، ما زال كبيرا ، وفى الظروف التى ساعدت على نشر هذا الكتاب والحوافز الداعية اليه لشعاع من كل ذلك .

تــونس فى 1977/5/19

مقدّمة

كلمـــــة ..

كلمـة لا بد منها بين يدى التعريف الذى أرجـو أن أقـدم بـه الادب التونسى المعـاصر من خلال المطبوعات التى تصل الينا بيـن الحين والحين .

ان الظاهرة البـارزة التى تتردد على ألسنة الادبـاء التونسيين وأقلامهم هى الشكوى من العزلة المضروبة بين الجناح الغربى والجناح الشرقى مـن البلاد العربيـة . والعقبـات الاقتصاديـة والسياسيـة والاجتماعية التى تحـول دون انتشار الكتـاب التونسى فى البـلاد الشرقيـة .

فالجناح الشرقى يمور ويضطرب بالافكار والآراء والمذاهب الادبية والفكريـة ، بينما يتحرك الجنـاح الغربى ببطء وفى اطـار محدود لا يسمح له باختـراق الجدار الاصم القائم بينه وبين الجنـاح الشرقى .

ولقد كان الاستعمار ــ وما يزّال ــ يبارك هذه العزلة بين أقطار الامة العربية ، لانـه لا يستطيع أن يحتوى هذه الاقطار فى مناطـق نفوذه الا فرادى منعزلة متفرقة الاهـواء ، اذ أن مجـرد تجمع هـذه البلاد المتحدة اللغـة ، والتاريـخ والاهـداف والآمـال تعنى نهايـة الاستعمار .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو لا يريد أن تحل الثقافة العربية الاصيلة محل الثقافات الغربية التى يستطيع من خلالها دائما أن يفرض فلسفاته على الامة العربية ، ومن هذه الفلسفات يقفز الى السيطرة الاقتصادية والسياسبة على البلاد العربية ، فيسهل عليه بقاؤها الى الابد فى مناطق نفوذه .

ومع أن تونس بالذات قد أتيح لها فرصة الانفتاح على البلاد الشرقية بوسيلة أو بأخرى ، منذ القدم ، وفى العصر الحديث عن طريق التبادل العلمى منذ هجرة ابن خلدون واستقراره بمصر ، وفى وفود الحج والتجارة والاتصالات التقليدية ، وفى انتقال أبنائها الى جامعة الازهر ، حتى الزيارة التى قام بها الشيخ محمد عبده لتونس ، وأخيرا عن طريق تبادل الصحف وتبادل الاقلام التى تكتب فى هذه الصحف ، وتبادل المطبوعات ، وقيام دور النشر الجديدة فى تونس .

الا أن تونس ما زالت تحس بهذه العزلة احساسا عميقا ، وتعتب على شقيقاتها الشرقيات وعلى أدبائها انصرافهم عنها ، وتجاهلهم لانتاجها ، حتى بعد استقلالها السياسى والاقتصادى الذى اغتصبته من المستعمرين ، وبعد المساهمة الايجابية التى تقوم فى حل مشكلات الجناح الشرقى بوجه عام .

ومع هذا فنحن جميعا نحس بالحاجة الى تنشيط التبادل الثقافى والادبى والفنى والفكرى والصحفى الى الدرجة التى يحس معها القارىء العادى فى كلا الجناحين بما يجرى داخل الجناح الآخر ، ويلمسه ، ويتذوقه ، ويتفاعل معه ، ويشارك فيه .

وهنا لا بد أن يقوم الافراد وأن تقوم المؤسسات فى مختلف بلاد الجناحين ببذل أقصى الجهد فى هذا السبيل ، لتمد جسرا من التفاهم والتعارف الوثيق بين تونس بالذات وبين شرقنا العربى .

واذا كان للافراد بجهودهم المحدودة أن يسهموا فى هذا البناء . فاننى من هنا اقدم ما تيسر لى الاطلاع عليه من الانتاج الذى تقدمه مطابع تونس العربية .

نحن نحس فى الآونة الاخيرة بأن جهودا كثيرة ومخلصة تبذل لتقوية الروابط الفكرية والثقافية بين تونس والبلاد العربية ، ممثلة فى المطبوعات التى تفد علينا من تونس ، وان كانت قليلة وبطريقة فردية ، ولكنها تؤكد أن هناك نشاطا فكريا وليدا ، ورغبة مخلصة فى التقارب بين الجبهتين .

ومن خلال ما يتوفر لدى من مطبوعات تونسية سوف أطلع المستمع الكريم على مضمون الثقافة والفكر العربى المعاصر فى تونس بقدر ما أستطيع ، وأرجو أن يشاركنى المستمع الرأى فى أن هذا الجناح الغربى ـ وفى مكان القلب منه تونس ـ جدير منا جميعا بهذا الاهتمام ، وبما يتلوه من تفاعل مثمر للثقافة العربية والمثقفين العرب جميعا .

وما لم نحتضن هذه النهضة الفكرية الوليدة فى تونس فان مصيرها سيكون الانطواء أو الانفتاح على الثقافات المعادية من جديد .

ان فى تونس ـ بعد الاستقلال والاستقرار ـ مظاهر ووسائل لنهضة أصيلة بعيدة عن أن تكون ثورة طارئة ، وانما هى حركة فكرية أدبية ذات أهداف ، تتخذ لنفسها وسائل حقيقية ، وتسندها أيد وعقول وكفايات تبشر بالاستمرار ، وتدعو الى التفاؤل .

ففى مجال الفن أصبح مهرجان قرطاج الدولى للسينما والمسرح معترفا به عالميا كأى مؤتمر فنى فى أى بلد من البلاد المتقدمة ، مما ينبىء بان وراءه نهضة فنية ناضجة مكتملة الدعائم .

كما أنها قد أخذت نصيبها الدورى فاحتضنت مؤتمر الادباء التاسع ومهرجان الشعر شأن بقية الدول العربية فى المشرق .

وكانت أول دولة عربية في المغرب يستضيف مؤتمر الادباء .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقرا ان الدولة بدات تحتضن المؤسسات الصحفية وتشجعها وتنميها ، وتعطيها من ذات النفس والمال والحرية ما تستطيع به أن تقف في مصاف الصحافة العربية العريقة ، بل والصحافة العالمية المتقدمة .

وفي مجال الصحافة نسمع ونقر ان الدولة بدات تحتضن أن تخلص الادب من التكتلات والطائفيات ليصبح أدبا عربيا خالصا جديرا بأن يقود الامة الى حياة أفضل .

ومن الوسائل والضمانات الباعثة على التفاؤل قيام عدة مؤسسات جادة للنشر والتوزيع .

والذي يدعو الى الاطمئنان تلك الخطط والمناهج التي تضعها هذه الدور لنشاطها من احياء للفكر العربي ، وبعث للتراث ، والتراجم لاعلام التونسيين القدامى والمحدثين ، والتعريف بالثقافة العربية عامة ، وتبادل الاقلام بين التونسيين والادباء المشارقة والمغاربة على السواء ...

وقد كان ذلك مما لفت الباحثين في الشرق والغرب ، وحمل المستشرقين على أن يعترفوا بالادب التونسي وأعلامه ودورهم في النهضة التونسية خاصة وفي النهضة العربية المعاصرة والانسانية بوجه عام .

وما أجدرنا نحن بهذا الالتفات الى اخوة يشاركوننا اللغة والدين والفكر والدم والآمال والآلام ، ونحن نرجو ان يوفقنا الله الى ان نتناول بالعرض والتعريف لجوانب النهضة الادبية في تونس من خلال انتاج كتابها وشعرائها وباحثيها في حدود ما نستطيع الحصول عليه من مطبوعات ، وما يمنحنا الله من جهد وتوفيق لنعرض ذلك بأمانة وصدق واخلاص .

... وشخصيـــة

قدمت لهذا الموضوع بكلمة أعتقد أنها تلقى الضوء فى طريقنـا الى التعريف بالادب التونسي ، وهناك خطوة أخرى لا بد منهـا هى التعريف بالجهود المناضلة التى لها اثرها فى التقريب ما بين أدبـاء تونس والعالم العـربى .

وهذه شخصية أعتقد أننا نقصر فى ذات الموضوع اذا اقتحمناه دون ان نتعرف عليهـا .

فهناك جهود جماعية تتمثل فى الجمعيات الادبية والفكرية التى ظهرت حديثا ، مثل رابطة القلم ، ونادى القصة .

ومنها جهود المجلات مثل مجلة الفكر ومجلة الندوة ، ومجلـة اللغات ومجلة الثقافـة ، ومشروعات اصدار ونشر مسلسلات الكتب الثقافية والفكرية مثـل سلسلـة كتاب البعث ، مكتبـة الشابى . وسلسلة اعلام المغرب العربى .

ومثلها جهود دور النشر والتوزيع الناشئة مثل الدار التونسية للنشر والشركة التونسية للتوزيع ، ودار الكتب الشرقية ، وشركة النشر لشمال افريقيا ودار المغرب العربى .

واعترف ان معرفتى بهـذه الجماعات قاصرة ، لا تعدو ما أقـرؤه من خلال نشاطها واسمائها المدونة على منشوراتها .

اما ما اعرفـه عن ثقـة فهو تلك الشخصيـة التى ظلت تـربض وراء الكثير من الانتاج الفكرى التونسى المعاصر لعقدين من الزمان مثلما يربض الجندى اليقظ خلف مدفعه المصوب .

تلك هى شخصية الكـاتب الباحث التونسى المتعدد الجـوانب الاستاذ أبو القاسم محمد كرو .

فمنذ تخرجه في دار المعلمين العليا بالعراق، في اوائل الخمسينات من هذا القرن ، عاد الى تونس ليمارس هوايته كمؤلف اولا ، ثم ليصنع لهذه اليقظة الفكرية في تونس دعائمها الاساسية .

فألف أول بحث مكتمل عرفه العالم العربي عن « الشابي .. حياته وشعره » ، ثم أخرج مجموعة من مقالاته وخطبه وأحاديثه للتعريف بتونس في كتاب بعنوان « حصاد القلم » وعندما استقر في تونس أصدر العديد من الكتب في التعليم والعمل والسياسة والاجتماع ، والادب والنقد ، منها كتاب « كفاح الشابي » وكتاب « كفاح وحب » وبعض كتب التراجم ، واسهم بايجابية في تحرير الكثير من الصحف في مختلف البلاد العربية .

واخيرا تبلور اتجاهه الثقافي في اصدار سلسلة كتيبات شهرية باسم « كتاب البعث » الذي تناول في العديد من حلقاته كثيرا من الوان المعرفة في التاريخ والتراجم والدين والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والآثار والقصة والنقد ، وجمع على هذه السلسلة كثيرا من الاقلام التونسية والعربية .

ولم تكن الفكرة مجرد اصدار سلسلة من الكتب ، بل كانت مبادرة ثقافية واجتماعية يعتبرها الباحثون من الاحداث الهامة تشكل نقطة تحول في تاريخ الحياة الثقافية لتونس المعاصرة ، وقد نم عن اهدافها ذلك الشعار الذي اتخذه أساسا لعملها ، وهو « فكر حر ، وحياة افضل » وخطط لوضع هذا الشعار موضع العمل ، وذلك بان جعلها تسهم في بعث الثقافة العربية ، وتواكب نهضة المغرب العربي المعاصرة ، وتصور نشاط الحياة الادبية والاجتماعية ، وتيسر امكانية دخول القارىء الى فروع المعرفة المختلفة ، وترفع مستوى المجتمع ، وبهذه الصورة تستطيع قوة الكلمة المطبوعة والتثقيف ان تخرج المغرب من دائرة الخمول والاهمال .

وقد صدر من هذه السلسلة الشهرية أكثر من ثلاثين حلقة متتابعة .

ثـم اصدر مجلـة أدبيـة شهرية باسم « الثقافـة » تعمـل في المجالات الثقافية احياء وترجمة وتأليفا ، وتحفز كل الايدي للعمل ، وتجمع على صفحاتها كل الاقـلام العربية السائرة في هذا السبيـل دون تفرقة اقليميـة . .

واخيـرا أنشا دار المغرب العربي للطباعـة والنشر ليصدر مـن خلالها أكثر من ثلاث سلاسل من الكتب والكتيبات .

وفي مقدمـة هذه السلاسل سلسلة « مكتبـة الشابي » وهـي سلسلة من الكتب الحيـة التي تبحث أدب الشابي وحياته وآثـاره ، وتعرض عيون الدراسات والبحوث التي كتبها الشابي أو كتبها عنه الادباء والنقـاد .

والثانية سلسلة « اعلام المغرب العربي » وهي سلسلة ادبيـة تترجـم لمشاهير رجـال المغرب العربي قديما وحديثـا ، من شعـراء وكتاب وزعماء وأبطال ومفكريـن ، فيها تعـريف منهجي بحياتهـم ، وآثارهم ، ومكانتهم في تاريخ الفكر والادب العربيين .

والثالثة سلسلة « نجوم الفن » وهي أول سلسلة فنية تتحدث عن نجوم الفن في المغرب العربي .

ولقد استطاع بجهوده الخارقـة ومن خلال ايمانـه بالهـدف ان يجند قلمه ووقته ودخله لانجاح هذه السلاسل والسلاسل السابقة ، والعمل على انتشارها في أنحاء العالم العربي ، فحشد حولها الاقلام التونسية الكبيرة والشابـة من أمثال الكعـاك والحليـوي والعروسي والخميري ومصطفى رجب وزبيس ، والمرزوقي ، ومحجوب بن ميلاد ، ومحمد مزالي ، وصفر ، وناجية ثـامر ، بالاضافة الى الكتـاب الشرقيين الـذين استطـاع ان يجتذبهـم اليـه ، وان يفتـح امامهـم مشروعاته الثقافيـة ليشاركوا فيهـا على قـدم المساواة مع اخوانهـم التونسيين .

ان ابا القاسم كرو قصة كفاح نادرة في توثيق الروابط الثقافية والفكرية بين تونس وشرقي العالم العربي بهذه الجهود ، وبما يقوم به من رحلات علمية ، وبما يشارك فيه من مؤتمرات وندوات أدبية وثقافية ، وبما ينشره من تراث ، وما يشجع من اقلام تونسية ومشرقية وما يقدم من مطبوعات تونس الى الادباء والنقاد والقراء بغية ايجاد جسر من التعارف والتفاعل بين الفكر التونسي والمفكرين العرب .

وهو الى جانب ذلك قارىء نهم ، لا تفوته شاردة ولا واردة مما يكتب أو ينشر أو يذاع عن تونس خاصة وعن المغرب كله في القديم والحديث ، ولهذا فهو يجهد في تجميع كل التراث التونسي واعلامه ليعيد نشره باسلوب عصري يناسب قارىء اليوم في مختلف البلاد .

وهو ، من قبل وبعد ، كاتب اسلوب متميز بين الكتاب العرب المعاصرين بالاضافة الى ان لديه القدرة على ان يحول اسلوبه العالي الى اسلوب مدرسي تعليمي ميسر يشارك به في تحرير الكتب المدرسية للنشء التونسي .

يكفي ابا القاسم كرو للتنويه بجهوده انه عرف بالشابي لاول مرة باول كتاب علمي جامع يصدر عن حياته وشعره .

ويكفيه هذا الجهد الموفق ليكون داعية من دعاة الوحدة العربية بادئا من الجانب الثقافي الذى يجمع ولا يفرق ، ويهدى ولا يضل ، وحسب كل أديب عربي مخلص أن يضع معلما في هذا الطريق ، وقد وضع ابو القاسم كرو كثيرا من المعالم ، وحدد كثيرا من الاهداف ، وفرش هذا الطريق بالاضواء .

رضوان إبراهيم

الباب الأول

الأدب التونسي المعاصر في اللغة الروسية

الفصل الأول
الأدب التونسي في الاتحاد السوفياتي

من بين – المظاهر التي أعتز بها في مجال اهتمامي بالأدب التونسي قراءة وتفاعلا ودراسة – أنني شغوف بتتبع ما يكتب عنه، سواء في اللغة العربية أو في اللغة الأجنبية التي اجيد التعامل معها، وهي اللغة الروسية.

ومنذ توثقت صلتي بالأدب التونسي المعاصر (1) بفضل الصديق الأديب العالم ابو القاسم كرو، ومن بعده الاصدقاء الأدباء رشيد الذوادي، وعبد الواحد براهم، والدكتور نور الدين الحمداني، ثم صلاح الدين الجمالي (1) زاد اهتمامي بهذا الاتجاه، على قدر ما يتوفر لي من الوقت، وبقدر ما تستجيب لي الوسائل.

ولقد كتبت من قبل عن هذا الموضوع في جريدة « الصباح » الغراء بتاريخ 1972/9/14 آشير الى بعض الجهد المبذول من مستعربي الاتحاد السوفييتي الذين استرعى انتباههم الأدب التونسي المعاصر، فأخذوا بالوسائل العلمية والنقدية يعملون على تقييمه ووضعه في موضعه الصحيح بين آداب آسيا وافريقيا المعاصرة.

وقد صدر في الاتحاد السوفييتي العديد من الدراسات المركزة، لعل في مقدمتها الكتاب الذي أشرت اليه من قبل بعنوان « الأدب

(1) الحمداني والجمالي من موظفي السفارة التونسية بالقاهرة ، وكانا يزودان المرحوم رضوان ابراهيم بالكتب التونسية « ك » .

التونسي » للمستعرب التشيكي بانتوتشك، والذي ترجمته الى اللغة العربية إبان صدوره، وأرجو ألا تكون الدار التونسية للنشر قد نسيت أنه من بين مخطوطاتها منذ ثلاث سنوات، وألا ينسى السيد الرئيس مديرها العام أن بيني وبين الدار عقدا بنشر هذا الكتاب قارب عمره السنتين، وأن في هذا الكتاب ما هو جديد ومفيد من اللقطات المضيئة عن الأدب التونسي وأعلامه المعاصرين.

وكنت قد أشرت في نفس المكان من جريدة الصباح الى عمل من أعمال التعريف بالأدب التونسي في الاتحاد السوفييتي كان ما يزال في ضمير الغيب، وهو مجموعة قصص تونسية مختارة للترجمة الى اللغة الروسية.

ولقد صدرت هذه المجموعة في حوالي 80 صفحة بعنوان « الوجه الجديد » ضمن سلسلة عن أدب الشرق، وقد أشرف عليها وشارك في ترجمتها. وقدم لها الدكتورة أولجا فرولوفا أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينجراد.

وقد اقتصر اختيارها على سبعة من القصاصين التونسيين الذين يمثلون الاتجاهات الأصيلة في القصة التونسية المعاصرة، واستوعبت تسعا من القصص التي تعتبر نماذج لهذه الاتجاهات وقام بترجمتها عدد من الدارسين والمتخصصين من كبار المستعربين السوفييت على الوجه التالي :

البضاعة الجيدة، لمحمد الصاحبي، قام بترجمتها الى اللغة الروسية الدكتورة سفيتلانا باتسييفا. (2)

الوجه الجديد، لنفس المؤلف، وقد اتخذ اسمها عنوانا للمجموعة، وقام بترجمتها س. بروزوروف.

القمح وزيت الزيتون، لمحمود طرشونة، ترجمها ا. ايبيدنسكي.
سيدي سالم، لمحمود بو العيد، ترجمتها ا. ميخائيلوفا.
مصرع صالح، لمحمد فرج الشاذلي، ترجمها س. بروزوروف.
صاحب المغارة، لمحمد المرزوقي، ترجمتها الدكتورة أولجا فرولوفا،
المتبوع، لمحمد المرزوقي، ترجمها ف. تخوروجيفسكي.
فرحة الأولاد، للطيب التريكي، ترجمتها ر. شرف الديسنوفا.
إبريق الشاي، لناجية ثامر، ترجمتها ا. سوكولوفا.

وللمزيد من تعريف القارىء السوفييتي بهذه الشخصيات، ومعظمها جديد على القراء ألحقت المحررة بهذه المجموعة ثبتا بيوغرافيا قصيوا لايجاد صلة بينهم وبين الأدباء والدارسين، ولفتح مجال التعارف والتقارب بين الأدبين التونسي والسوفييتي.

كما قدمت الدكتورة أولجا لهذه المجموعة بدراسة تاريخية تحليلية وافية، ومركزة تقول فيها :

---

(2) تخصصت فى دراسة آثار ابن خلدون وقد نشر لها عنه بتونس « نظريات ابن خلدون » ويطبع حاليا كتابها الكبير عنه « العمران البشرى فى مقدمة ابن خلدون » وما تزال توالى البحث والكتابة عنه وعن الادب التونسى. « ك »

« كان يوم الثالث من يونيه عام 1955 يوم اعلان الاستقلال الذاتي لتونس، والمظاهرات الضخمة للشعب المغتبط المتهلل بالهتافات التي تمجد الحرية والاستقلال، وهي تتحرك في اتجاه قرطاجنة، التي كانت المدينة الرئيسية وقتا ما، حيث كانت الدولة الجبارة المترامية الأطراف، وهي في الوقت الراهن ضاحية من ضواحي العاصمة تونس، وتحمل نفس الاسم في نفس البلد.

وبعد أقل من عام، في العشرين من مارس عام 1956، أعلن الاستقلال التام لتونس، وأصبحت هذه الأحداث أهم مراحل التطور السياسي والاقتصادي والثقافي.

ويرجع تاريخ هذه البلاد الى الألف الأولى قبل الميلاد، حيث يتصل بتاريخ الفينيقيين والرومان والونـدال والبيزنطيين، ، ثم أصبحت البلاد التونسية عربية منذ القرن الثامن الميلادي.

وتونس موطن لكثير من مشاهير العلماء والأدباء الأمجاد، فضلا عمن يدعونه أبولو، مؤلف الرواية العالمية المشهورة « الحمار الذهبي » في القرن الثاني الميلادي، وقد تلقى علومه في قرطاجنة.

كما أنها موطن مؤلف أول كتاب عن نظرية علم التاريخ، وهو « المقدمة » لكتاب ابن خلدون في تاريخ العالم، وابن خلدون من علماء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو يعتبر إماما لعلماء الاجتماع المعاصرين .

وفي تونس تقوم جامعة من أقدم جامعات العالم، هي جامعة الزيتونة التي أنشئت في القرن الثالث عشر. (3)

وفي القرن التاسع عشر ظهر في البلاد أدب فني أخذ ينتظم في نمطه العصري(4).

ولقد فتح استقلال تونس أمام أدبائها آفاقا جديدة، ولعبت مجلة « الفكر » — التي ظلت تصدر منذ عام 1955 — دورا كبيرا في تعريف القراء بانتاج المؤلفين التونسيين.

وكما يعتمد المؤلفون التونسيون في إبداعهم الراهن على التقاليد المحلية فانهم يعتمدون كذلك على منجزات آداب البلاد العربية الأخرى، كما يعتمدون على الآداب الغربية.

حقيقة إنهم يتحدثون عن أحداث الحياة اليومية، لكنهم كثيرا ما يلجأون الى الماضي البطولي لشعبهم، والى نضاله الوطني التحرري،

---

(3) هكذا فى الاصل ، ومعلوم ان جامع الزيتونة تأسس عام 114 للهجرة وانه منذ تاسيسه وهو معهد للعلم . وعليه فان التاريخ الصحيح هو القرن الثامن الميلادى ، لا الثالث عشر . « ك »

(4) عن الادب التونسى المعاصر يمكن الاطلاع على الاعمال التالية : سفيتوزار بنتوتشك ، الادب التونسى المعاصر ، دراسة قصيرة ، موسكو ، 1969 و س . بروجوجينا ، أدب مراكش وتونس ، موسكو ، 1968 ، و « ارضنا العزيزة » ، مجموعة قصص لكتاب مراكش وتونس وليبيا ، موسكو، 1967 ، و ب . شوستر ، مراجعات فى أدب تونس ، « كوكب الشرق » ، عدد 10 ، 1958 ، و ى ن . زافادوفسكي ، الادب التونسى ، دائرة معارف الادب المختصرة ، مجلد 7 ، موسكو ، 1972 ، و س . ف . بروجوجينا ، أدب بلدان المغرب المكتوب باللغة الفرنسية ، موسكو ، 1972 .

ويخصصون كثيرا من المواقع للحديث عن حياة الناس البسطاء، وعن عاداتهم وتقاليدهم وخرافاتهم المحليــة.

ومعظم كتاب تونس المعاصرين يتحدثون في انتاجهم عن نضال الشعب التونسي في سبيل التحرر من الظلم الاجتماعي، كما يتحدثون عن التحرر من العبودية الروحية.

إنهم يسخرون دائما من العـادات والخرافات البائدة، ويندون بها، ويصورون حياة الشعب اليومية بمختلف صورها ، ويبرزون ما فيها من مظاهر العزة وجمال البساطة في الإنسـان البسيـط.

وتصوير الحياة الشعبية هو الموضوع المفضل لدى كاتب الجيـل المبكر محمد المرزوقي الوثيق المعـرفة بها.

ان محمد المرزوقي كاتب فولكلـوري خبير بحياة البدو وأغانيهم القديمة وأساطيرهم وقوانينهم القبلية وعاداتهم التي ظهرت انعكاساتهـا في إبداعه الفني. فهو يصور في حب وتعاطف طبيعة الصحراء بأوديتها، وأبعادها المترامية الأطراف، ورمالها الصفـراء وصخورهـا الصلدة.

وقد وفق الـكاتب في ان يبعث في قارئه شعورا غير عادي بالطمأنينة والاجلال بازاء الطبيعة المحيطة بالانسـان عند التأمل في هذه المراتع الفسيحة الأرجاء.

فالسكون.. وجلال الطبيعة يستقبله المرزوقي بشغف إنساني عاصف.

وفي قصصه انعكاسات لكثير من الآراء الساذجة والعادات والقوانين السائدة في ظروف الحياة العادية للبدو الرحل لآماد طويلة من الزمن.

ولقد كرس المرزوقي لحياة البدو قصة « عرقوب الخير »، وقصة « خيال الماضي »، وقصة « المتبوع ».

أما قصة « صاحب المغارة » فتدور حول الكشف عن السر الخاص بإحدى الأساطير التي كانت تروى عن الثقة في الحب وخيانة الصديق وعن مآسي الفقر.

تلك هي ملامح واحد من الجيل المبكر، أما كتاب القصة القصيرة من الشبان فاننا نجدهم في حالة بحث مستمر عن الأساليب الأدبية الجديدة.

ونجد مجلة « الفكر» التونسية تفتح صفحاتها بصورة منتظمة للنقاد وعلماء الأدب لمناقشة المشكلات الحيوية للقصة، وفنية القصاصين، والمضمون الفكري لانتاجهم، ووسائل إتقان الشكل الأدبي.

ويحدد عبد العزيز قاسم في مقاله عن « قواعد القصة » المهام المستقبلية للأدب التونسي حين يقول : « علينا أن نثبت لهذا الأدب حقيقته العميقة الراسخة، وأن نجعله أدبا يتحدث عن الانسان، عن ماهيته، وعن طبيعته، وعن قلقه، وعن حريته، وعن أمانيه، وعن قضايا حياته الخالدة » (5).

---

(5) عبد العزيز قاسم ، في أساليب القصة (عن قواعد القصة) ، الفكر ، 1966 ، عدد 6 ، ص6 (630) .

أما المؤلف الذي ما يزال في دور الشباب، ولكنه واسع الشهرة، وهو محمود بو العيد، فيخصص انتاجه للمواقف الصعبة التي يعانيها الشعب، وقصته « قلب لا يخفق » — على سبيل المثال — يتحدث فيها عن المعاملة القاسية التي يعامل بها العبد الأسود، ويسخر من الخرافات والعادات البائدة.

وقصة « سيدي سالم » قصة محتال ذكي يستغل السذاجة والجهل بالعقيدة والثقة بالقديسيين والبحرة.

وهو يتجاوب في كثير من العناصر مع قصة « دار الشفاء » للكاتب التونسي المعروف مصطفى الفارسي المولود عام 1931، وهي القصة المنشورة باللغة الروسية في مجموعة « أرضنا العزيزة ».

وعن الحظ التعس الذي يعانيه الفقراء يكتب الكاتب المشهور الطيب التريكي قصصه، ففي قصته « فرحة الأولاد » يضع أمام القارىء صورة أسرة لا تستطيع حتى في يوم العيد أن تطعم أطفالها الى حد الشبع.

وتتفاقم دراماتيكية الحالة، وتزداد سوءا بسبب أن الفقر في المفهوم الشائع وصمة عار كبرى، وسمعة ربة البيت التي يحل بها العيد ولا تستطيع أن تعد الطبق التقليدي للعيد تصبح سمعة ملطخة.

وتنهال على المرأة الفقيرة سخريات الجيران واستهزاؤهم وإهانتهم، وليس من باب المصادفات أن يكون ذلك في أيام الأعياد الدينية، فان من الممكن أن نقرأ في الصحف خبر انتحار امرأة لا تملك النقود التي تهيء بها طعام العيد.

أما الطيب التريكي فيتخذ محور قصصه من الحياة الواقعية، ويعمد الى سرد الكثير من تفاصيل الحياة اليومية العادية، ويلجأ الى أحداث هذه الحياة يستوحيها.

وفي جرأة يخالف المؤلف قواعد اللغة العربية الأدبية. ويدمج في نص القصة حوارا باللغة التونسية الدارجة.

وقضية ازدواج اللغة تثير القلق في العالم العربي كله، فكان كل بلد عربي يتحدثون اللغة الدارجة المحلية مثلما يتحدثون في الوقت نفسه باللغة الادبية العامة بالنسبة لجميع البلاد العربية، لكنها عمليا غير مفهومة للغالبية العظمى من العرب الذين لم تتح لهم فرصة الالتحاق بالمدارس.

والكتاب مضطرون بحكم التقاليد أن يكتبوا أعمالهم باللغة الأدبية، وكان محمد حسين هيكل أول من بدأ يقدم أحاديث الشخصيات باللغة المحلية الدارجة، وتابعه في ذلك الكتاب التونسيون الشبان، حينما لجأوا جميعا وفي حسم الى الحديث « بلغة الشارع » التي يتحدث بها الفقير التونسي.(6)

وفي قصة « القمح وزيت الزيتون » التي تنسب الى قلم محمود طرشونة يشغل المكانة الرئيسية فيها قضية النضال الحيوي والملح

---

(6) هذه الملاحظة تثير نقاشا طويلا، ويكفي ان نذكر بان الذين يكتبون بالدارجة في تونس او يمزجونها في كتاباتهم لم يتابعوا م. ح. هيكل الذى ليس هو اول من كتب بها في مصر. ففي مطلع القرن الحالي ظهرت في الصحف التونسية الكتابة بالدارجة، بل وتخصصت لها صحف بكاملها. اما في مصر فان الكتابة بها ظهرت منذ القرن الماضي. (ك)

جدا ضد العادات الراسخة باحكام لاخفاء الفقر بطريقة متقنة ، والتظاهر بالغنى.

ومحمود طرشونة يسخر من الرواد الدائمين للمقاهي التونسية، ويبدي فزع هؤلاء من أن يعرف شخص ما أي شيء عن فقرهم، كما لو كان ذلك شيئا فاضحا على الحقيقة.

والقصاص الشاب محمد الصاحبي الحاج يطالعنا بانتاجه النثري المنتظم في شكله الموجز، وتتميز قصصه القصيرة بالبناء المحكم ، والتحول الفجائي للأحداث، والحلول غير المتوقعة.

ففي قصته « البضاعة الجيدة » يصور المؤلف بسخرية تلك العادات القديمة لزواج البنت الكبرى أولا ، ثم البنت الصغرى كما يسخر من عادة تحريم رؤية الخاطب خطيبته قبل اتمام الزواج.

والحاج يبرز أن منطق الحياة المعاصرة يوجد التزاما أحمق وغير محتمل بالأوضاع المماثلة.

وفي جميع أعمال الكتاب التونسيين المعاصرين على وجه التقريب تنعكس هذه أو تلك من مسائل النضال الوطني التحرري، ففي قصة الكاتب الشهير محمد فرج الشاذلي المعنونة « مصرع صالح » يحب البطل عمله في الفلاحة، لكن الشعور بالنقص، والفزع من المستعمرين يقوده الى صفوف المناضلين، فيلتحق بفصائل الفدائيين.

وفي السنوات الأخيرة ظهر في الأدب التونسي بعض الكاتبات من النساء، وأكثر هؤلاء يكرسن قصصهن لمجموعة من الموضوعات الخاصة بالمرأة.

من هذه القصص على سبيل المثال قصة أمينة بنت مصطفى، وهي قصة « سر خديجة »، 1967 ، ويسودها في الواقع أسلوب المذكرات التهذيبية، فالكاتبة تنصح الرجال التونسيين بأن يختاروا زوجاتهم من بنات وطنهم، وألا يركبوا البحر الى فرنسا، فحتى النساء لا يتميزن بشيء هام من وجهة نظر الأخلاق الإسلامية.

ومن الكاتبات الشهيرات في تونس ناجية ثامر، التي ألفت كثيرا من المسرحيات، والمقالات النقدية، والأعمال الأدبية، كما قدمت كثيرا من الموضوعات النسائية، ففي قصة « غناء البلبل » تتحدث عن غيرة الحماة من زوجة الابن، تلك الغيرة التي لا يخفف منها سوى ظهور حفيدها الذي جاء الى هذا العالم.

وفي قصة « ابريق الشاي » تتحدث ناجية ثامر — دون أن تتعمد الإلحاح — عن الحياة القاسية التي يحياها الأجير التونسي.

انها تبرز طابع الحزم والصلابة الأصيلة المثيرة والمعتزة بروح الثبات في النضال.

وبعد.. فلقد ظل الأدب التونسي حتى هذه اللحظة غير معروف خارج حدود بلاده الا للقليلين، مع أنه بلغ مستوى فنيا عاليا.

ونأمل أن يؤدي نشر مجموعة « الوجه الجديد » — بالرغم من التحديد المرسوم لهذا الرصيد المتواضع — شيئا من التوسع في تقوية الصلات الثقافية بين الاتحاد السوفييتي وتونس حتى يمكن أن يتعرف القاري السوفييتي — بطريقة أفضل — على واحد من الآداب العربية المعاصرة، وهو أدب يطور نفسه من عام الى عام، وينظم قواه الإبداعية، أدب يقدم بنفسه في الوقت الراهن أهم ظاهرة ثقافية ».

وأخيرا يجيء تعريف المحررة بكتاب هذه المجموعة على الوجه التالي :

محمد الصاحبي الحاج

كاتب تونسي شاب، وقد تم تحقيق ترجمة قصته « البضاعة الجيدة » عن نص منشور في مجلة الفكر، العدد السادس، عام 1967. أما ترجمة قصته « الوجه الجديد » فهي محققة عن نص منشور بالعدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1966.

ولم يسبق أن نشر له شيء في اللغة الروسية من قبل.

محمود طرشونة

كاتب تونسي شاب، وقصته « القمح وزيت الزيتون » مترجمة عن نص منشور في العدد الثامن من مجلة الفكر لعام 1966. ولم ينشر لهذا الكاتب قبلها شيء في اللغة الروسية.

محمـــود بلعيـــد

كاتب واقعي تونسي شاب، معروف بقصصه التي تتناول الأوضاع القاسية لحياة العمال الذين تجلدهم العادات الوحشية، والأباطيل والخرافات. وترجمة قصته « سيدي سالم » محققة عن النص المنشور في العدد السابع من مجلة الفكر عام 1967.

وقبل هذه القصة لم ينشر له شيء في اللغة الروسية.

محمـد فـرج الشـاذلي :

ولد في القيروان عام 1927، وهو كاتب تونسي معروف باتجاهه الواقعي. وفي قصص محمد فرج الشاذلي وصف رائع لحياة الشعب وطبيعة الوطن وأعمال الفلاحين. وله مجموعة قصصية مخصصة للحركة الوطنية التحررية. وقصته المترجمة « مصرع صالح » مأخوذة عن نص منشور في العدد الثالث من مجلة الفكر لعام 1955.

ولم ينشر لمحمـد فرج الشاذلي قبل ذلك شيء في اللغة الروسية.

محمـد المـــرزوقي

ولد محمد المرزوقي عام 1916، وهو كاتب تونسي مشهور، الى جانب أنه شاعر، وناثر، وعالم، وجامع لنصوص التراث الفولكلوري التونسي.

وكثير من قصصه منشور في المجلات التونسية، والى قلم هذا الكاتب تنتمي مجموعة قصص «بين زوجتين» المنشورة في تونس عام 1957، ومجموعة « عرقوب الخير » المنشورة في تونس

عـام 1956، ومجموعة « في سبيل الحرية » المنشورة في تونس كذلك في عام 1956، وغيرهـا.

وترجمـة قصته « صاحب المغارة » مأخوذة عن نص منشور في مجموعـة « عرقوب الخير »، أما قصته الاخرى « المتبوع » فمأخوذة عن مجموعة « أرضنا العزيزة ».

الطيـب التـريكي

كاتب تونسي معاصـر، وترجمـة قصته « فرحة الأولاد » محققة عن نص منشور في العدد الاول لعـام 1965 من مجلـة الفكر.

ولم ينشر لهذا الكاتب شيء في اللغة الروسية قبل هذه القصة.

نـاجيـة ثـامـر

كاتبة تونسية مشهورة، ولدت في دمشق، ولـكنها تنحدر مـن أسـرة تونسية.(7)

وناجية ثامر مؤلفـة قصص ومسرحيات ومقالات في علـم الأدب، والى قلمها ينسب عدد من المجموعات القصصية، مثـل مجموعة « أردنـا الحياة » المنشورة في تونس في الستينـات.

(7) المعروف ان السيدة ثـامر حاصلة على الجنسيـة التونسية ، ومستقرة بتـونس منذ ثلاثين سنـة . (ك)

وترجمة قصتها « ابريق الشاي » محققة عن نص منشور في العدد الأول من مجلة الفكر عام 1961.

ولم ينشر لناجية ثامر أي انتاج في اللغة الروسية من قبل .

هذا هو الجهد المخلص الذي بذلته المحررة الدكتورة أولجا فرولوفا في تعريف القراء السوفييت بلون من ألوان الأدب التونسي المعاصر في هذا الحيز المحدود، ومع أن المحررة تقول عنه إنه « رصيد متواضع » وعلى الرغم من رأيها في تبرير استخدام اللغة الدارجة المحلية الا انه يبدو من خلال كلماتها التعاطف والإخلاص وروح الصداقة للأدب التونسي، وتلك بداية لزحف الأدب التونسي على المجالات العالمية، ويبقى بعد ذلك نشاط الأدباء التونسيين وانطلاقهم، ويبقى دور الأجهزة الرسمية في تنمية الصلات الثقافية على نطاق أوسع، وتبقى اللقاءات والندوات والمؤتمرات وتبادل الزيارات.

ومن الأمور الملحوظة في هذا الصدد ذلك الدور الإيجابي الذي لعبته مجلة الفكر التونسية في التعريف بالأدب التونسي، وربما كان دورا طبيعيا وغير متعمد، ولكنه أثمر هذه الثمرة الطيبة لخير الأدب التونسي الصاعد.

الفصل الثاني
التجديد في الأدب التونسي

تاريخ الأدب العربي المعاصر في تونس – شأنه شأن الأدب في بقية بلدان العالم العربي الأخرى – يرتبط تطوره حتما ببداية نمو التجديد الثقافي في البلاد.

فلقد أدى ظهور رأس المال الأجنبي في إفريقيا المعاصرة وميلاد الصناعة المحلية في القرن التاسع عشر، الى تغيير في جميع مكونات الحياة الاجتماعية، ومن بينها هياكل الثقافة والتعليم.

وتحت ظروف الحماية الفرنسية التي استمرت طوال خمسة وسبعين عاما كان تطور الأدب التونسي بطيئا الى أقصى حد، الا أنه بالرغم من كل هذا كان يتعرض – مثلما تعرض الأدب المصري والأدب السوري في تلك الفترة – لتحول ملحوظ، فلقد جدد نفسه وأثرى انتاجه، وتخلى بعض الشيء عن قوانين الشعر التقليدية الصارمة، وظهرت فيه فنون جديدة.

ومع ان هذا التطور بدأ في تونس متأخرا عنه في بلدان الشرق العربي، الا أنه منذ الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت أول

مطبعة حكومية، واول جريدة تونسية، وأول ترجمة لآثار المؤلفين الأوروبيين (1).

غير أن اليقظة الحقيقية للثقافة الوطنية في تونس لم تصل الى المستوى الذي وصلت اليه البدعة الأوروبية، و « المهمة التمدينية العظمى » للاستعمار الفرنسي، لكنها وصلت الى القدر الملائم لنشاط القوى الوطنية، ونمو الوعي القومي في البلاد.

خير الدين التونسي

وترتبط بداية مرحلة اليقظة الثقافية في تونس بظهور أسماء مثقفي تونس في القرن التاسع عشر، من أمثال خير الدين التونسي، الذي ينسب اليه نشاط السنوات الأولى لحكم المشير أحمد باي (1837 — 1855) المناصر الإيجابي للاصلاح، فلقد شغل خير الدين كثيرا من المناصب العسكرية والسياسية في بلاط أحمد باي وخلفائه، وحصل خير الدين باستقامته على اعتراف الجميع بمواهبه وقدرته على استغلال منجزات الحضارة الأوربية في مجال سياسة الدولة، والحقوق الاهلية والشرعية في ميادين الفكر الاجتماعي، وفي تطوير الصناعة اذ كان يعتبر أن ذلك هو الطريق الوحيد والخاص للوصول بالبلاد الى الاستقلال السياسي والاقتصادي.

إن خير الدين يبسط نظريته الخاصة بتطور الحضارة الاوربية في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي أنجزه عام 1867 (2).

وكان نشاطه موجها الى الأهداف النهائية لتحويل تونس الى دولة بورجوازية ديمقراطية من الطراز الأوربي ، وقد أثار نشاطه أعتراض المحافظين المثقفين على نقاء الدين، ورسوخ قوانين الشريعة، خاصة وأن خير الدين كان يدافع كذلك عن رأيه في ضرورة تعليم المرآة.

والى جانب ذلك كان نشاط خير الدين خصبا ومثمرا الى أقصى حد فبمساهمته تم افتتاح أول معهد عال على النظام المدني في البلاد عام 1875، وهو الكلية الصادقية، وأنشئت المكتبة العبدلية؛ وقد استطاع أن يجري تغييرا في المناهج التقليدية للتعليم في الجامعة الإسلامية ، جامعة الزيتونة ، حيث وسع مجال تعليم العلوم الطبيعية بدرجة كبيرة (3).

وأكثر من مرة أفصح خير الدين عن آرائه في ضرورة النضال في سبيل حصول البلاد على استقلالها(4)، والعناية بالشخصية الانسانية، ومراعاة القوانين والعدالة، والى جانب هذا فمن الضروري آن يكون للانسان ركيزة عقائدية، لا بالنسبة لعالم الغيب فحسب، ولكن كذلك على الارض، ومن هنا تتكون دعامة من الكتاب والشعراء التونسيين في المستقبل.

لقد تم احتلال تونس في عام 1881 لكي تتحقق مصالح رأس المال الفرنسي، ولم يتم هذا الاحتلال الا من أجل أن يعزز الوضع الذي كان قائما من الوجهة الرسمية عند ذلك الوقت، والذي كان يمكن أن نطلق عليه احتلالا جزئيا لتونس(5).

كذلك أتيحت للأجانب منذ عام 1856، وبمقتضى « المرسوم العالي » للسلطان فرصة تملك الأراضي والعقارات في جميع أقاليم الامبراطورية العثمانية(6)، وفي تونس أسلم الوضع الممتاز لأصحاب المشروعات الفرنسيين الى الوضع الذي جعلهم يتملكون كثيرا من آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبة بدون ثمن، بل أكثر من ذلك كانوا يحصلون على امتيازات لانشاء المشروعات المختلفة التي ترتبط باستغلال الثروات الطبيعية في البلاد، والمرافق والوسائل الأخرى، كالمواني، والطرق الحديدية والبرية الموصلة بين الأقاليم الصناعية ومراكز تصدير المواد الأولية، وكذلك البرق وأنابيب المياه ومصادرها وغير ذلك.

ولقد فرض الفرنسيون رقابة كاملة على الاقتصاد التونسي، فاستولت الشركات على مجالات التجارة، وقيد نشاط المشروعات التجارية للبورجوازية التونسية، وذلك بغمر تونس بالمنتوجات الصناعية الرخيصة، وحرمت الحرفيين المهرة من وسائل العيش، فلم يصمدوا للمنافسة، بل اضطروا أن يتوقفوا عن إنتاج كثير من السلع التي اشتهروا بها في جميع أنحاء الشرق العربي.

وبهذه الصورة، ونتيجة للاستعمار الأوروبي تأثرت أوضاع جميع طبقات المجتمع التونسي، الا أن أهل المدن كانوا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يشكلون أغلبية سكان البلاد، أما تجار الأراضي، والبورجوازية الصغيرة المرتبطة بتطور الحياة المدنية فقد كانوا كثيري العدد بدرجة كافية، وقد ولدت الحركة السياسية الموجهة ضد الحماية الفرنسية في أوساط البورجوازية المدنية بصفة خاصة(7).

فقد أثار تدهور الوضع المادي روح العداء ضد الفرنسيين في كثير من الأسر الأرستقراطية التي أملقت نتيجة لاحتكار الأجانب للمناصب الكبرى في دوائر الإدارة الحكومية.

بذور الكفاح الوطني

وفي الثمانينات من القرن التاسع عشر ظهرت في أوساط البورجوازية المثقفة لأول مرة تلك المنظمات القائمة على الأساس الوطني، وكانت أولاها جمعية « الأربعين »، التي نظمها أستاذ جامعة الزيتونة، البشير صفر(8)، واشترك في عضويتها مجموعة منحدرة من الأسر البورجوازية والأرستقراطية، من الحاصلين على التعليم في جامعة الزيتونة الدينية، والمحامين، والصحفيين، ومنذ عام 1888 أصبحت هذه الحلقة تصدر جريدة « الحاضرة »، وقد انحصر نشاط حلقة صفر في الدعوة الى فكرة الطابع التثقيفي على أساس الانتشار الواسع في ذلك العصر لفكرة الإصلاح في العالم العربي.

وقد اعتمد صفر على نفوذ المصلحين الكبار في الإسلام، وبصفة خاصة على واحد من أبرز قادتهم، وهو الكاتب الاجتماعي السياسي المصري محمد عبده، الذي آمضى بتونس بضع سنوات(9) في ابان اضطراره للنزوح عن مصر في الثمانينات.

وفي عام 1903 اعتبر التوسع الاقتصادي والسياسي للعرب في البلاد العربية واحدا من أشكال النضال المسيحي ضد الإسلام، أما الاخلاص للاسلام، وعادات الأسلاف فكان يعتبر معارضة للعلاقات

مع مسيحي أوروبا، وبدلا من هذا رأى المثقفون التونسيون في القرن التاسع عشر الطريق الصحيح إلى بعث عظمة ماضي البلاد، وأهليتها لمجابهة الاحتلال الأجنبي بالاصلاح الاجتماعي، والدعوة الى المعرفة على أساس الوصول الى المستوى العالمي.

وعلى المجتمع الجديد – في اعتبارهم – أن يسعى لا في طريق محاكاة البلاد الأوروبية، بل على أساس « الحقيقة » والدين الاسلامي المنقى من الخرافات، والتكيف مع متطلبات اليوم.

ولكن لكي نحافظ على تعاليم الإسلام ينبغي أن نظفر باعتراف الأوربيين، ولهذا كانت المهمة الأساسية لهذه الأيام هي إصلاح التعليم، وتحسين أنظمته.

فبالإضافة الى الكلية الصادقية المؤسسة عام ١٨٧٥، حيث كان يسود التعليم باللغة الفرنسية، وبمبادرة صفر في عام ١٨٩٦، افتتحت الجامعة الخلدونية(10)، المسماة على شرف المفكر المغربي العظيم عبد الرحمان ابن خلدون الذي عاش في فترة ازدهار الثقافة الإسلامية في القرن الرابع عشر.

وأصبحت هذه الجامعة مركزا للثقافة الجديدة، وتعليم اللغة العربية، ولكنها هنا اقترنت بتدريس العلوم الطبيعية على أساس الطرق العلمية العصرية، وعدا اللغة الفرنسية فقد كان يدرس بها تاريخ نظام العلوم الأدبية التقليدية، والأنساب العربية، وفنون البلاغة العربية، والشريعة الإسلامية، وتفسير القرآن، والادب العربي الكلاسيكي(11).

وكان الطلبة الذين ينهون دراستهم في هذه الجامعة يحصلون — بالإضافة الى الدبلوم — على بكالوريوس العلوم (12) كل في مجاله، وفي الثقافة الشرقية والغربية، وعدا ذلك فإنه بفضل جهود الوطنيين في بداية القرن العشرين أجريت في تونس بعض التجديدات والتطويرات في المدارس القرآنية التقليدية أو الكتاتيب، كما افتتحت المدارس الريفية(13).

طلائع النهضة الثقافية

وعلى تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين تزايد عدد المطبوعات الدورية في تونس بشكل واسع، فصدر باللغة العربية جرائد ومجلات « الحاضرة » عام 1888، و « الرائد التونسي» عام 1888(13) و « الزهرة » عام 1890، و « البصيرة » عام 1893، و « سبيل الرشاد » عام 1895، و « السعادة العظمى» عام 1904، و « القلم » عام 1904، و « الصواب » عام 1907، و التقدم » عام 1907 (15).

وكانت مهمة التوسع في المعرفة من خلال المطبوعات الدورية سببا في ظهور فن المقال. كما كانت مجموعة الموضوعات الجديدة للبحوث والمقالات سببا في بعض التبسيط الذي حدث في اللغة والاسلوب بالنسبة للمؤلفات الاجتماعية والسياسية، وتحريرها من التراكيب اللغوية المهجورة.

ومن الواجب أن نذكر أنه لم تظهر في تونس في القرن التاسع عشر أعمال من انتاج الترجمة الثقافية الموجهة الى غرض معين(16)،

على غرار ما حدث في لبنان وسوريا ومصر (17) على سبيل المثال، بفضل نشاط مدرسة الألسن، التي قامت باشراف رفاعة رافع الطهطاوي، اذ لم تتح مثل هذه الفرصة في تونس للاستفادة بانتاج المؤلفين الأوربيين في فروع المعرفة المختلفة الا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر(18).

والحقيقة أن مترجمات المطبوعات الفنية والعلمية المنقولة عن الغرب، والصادرة أخيرا بالقاهرة وبيروت أخذت تتغلغل في جميع بلدان العالم العربي، ومن بينها تونس، الا أن انتشار المعارف والأفكار الأوربية كان في بداية الامر قد جاء أساسا من خلال خريجي الكليات والجامعات الذين حصلوا على تعليمهم في الغرب(19).

ويبدو أن الصورة الجديدة الأخرى للابداع الأدبي بالذات ظهرت في البلاد عن طريق المقالات والتقارير الخاصة عن رحلات التونسيين خارج بلادهم.

ومن نماذج هذا الإنتاج « الرحلة الحجازية »، للشيخ السنوسي، حيث يقص عن أسفاره في بلدان البحر الأبيض المتوسط. ووصف آثار الفن الإسلامي في اسبانيا لعلي الورداني. ورسالة باريس لمحمد بالخوجة(20).

وانتاج هذا النوع من الطراز الأدبي يحتوي ـ عدا الانطباعات الخاصة ـ على مادة مدركة محددة.

والتعصب لفكرة الإصلاح الإسلامي، والاهتمام بماضيه القومي — يمكن أن يوضح ظهور تراجم البارزين من الشخصيات الاسلامية في الثمانينات، ففيما بعد وجدت أفكار محمد عبده — على سبيل المثال — انعكاسا في الإنتاج الذي اعتبره النقد التونسي أول ترجمة للرواية القومية في مثل رواية « الهيفاء وسراج الليل » لصالح سويسي عام 1906.

وعند بداية القرن العشرين وجدت نزعة ملحوظة الى تغيير الاتجاه الثقافي، فقد رأى أنصار بعث الماضي القومي للبلاد — الذين حاولوا أن يبرهنوا على رأيهم — أن تجديد الدين الإسلامي قادر على أن يجعله أساسا للتقدم، وأن يصل بالبلاد الى الاستقلال، لكنهم قوبلوا بمعارضة شديدة من جانب أنصار النزعة الغربية.

ولقد نشأ في بداية القرن الحالي في تونس اتجاه يرفض شعارات مجددي الإسلام، وقد كان هذا الاتجاه منجذبا الى الفكرة الأوربية وكان يقود هذا الاتجاه المحامي علي باش حانبة الذي كان ملاصقا لمجموعة صفر، ففي عام 1905 رأس جمعية خريجي الصادقية التي كانت تباشر النشاط الثقافي في البلاد.

وفي تلك الآونة أخذ عدد أنصار فكرة الجامعة الإسلامية في البلاد جميعها يقل، وفي عام 1907 وحد صفر وباش حانبة جهودهما، وأنشآ حزبا هو حزب « تونس الفتاة »، وكان معظم أعضائه بعيدين عن الثقافة العربية الإسلامية، بسبب أنهم كانوا قد تلقوا تعليمهم في فرنسا، وكانوا يؤيدون فكرة ضرورة اعتناق شعب البلاد للحضارة الغربية، وتحريرها من « الذهول العقلي »، وتطويرها على أساس النظام الغربي في الثقافة والتعليم.

وفي هذه الفترة الاولى من العمل الإصلاحي الثقافي الإيجابي لعب المثقفون دورا هاما في الحياة الاجتماعية التونسية، وكان الناتج النهائي لهذا الدور هو اعداد الأرض للنضال الوطني التحرري في المستقبل، لكن هذه الفترة لم تقدم شيئا من الإنتاج الأدبي الملحوظ، واذا كانت قد آثارت في مصر وسوريا اهتماما ايجابيا بماضي العرب، ساعد على ميلاد فن جديد هو فن الرواية التاريخية، فانها في تونس لم تحدث شيئا مشابها.

والذي حدث في تونس هو أن الكتاب الاجتماعيين والسياسيين هم الذين نشطوا في الغالب، فتضاعف عدد المجلات والجرائد، ونشطت الأبحاث والمناظرات الحيوية الكثيرة الحركة على صفحات صحف أنصار الاتجاهات المختلفة، مما أدى الى وفرة كبيرة في مجموعة موضوعات المقالات، كما أدى الى تحول في شكل الأساليب القديمة، وتقريب لغة الصحافة من لغة الحديث اليومي.

وفي بداية القرن العشرين وجدت كذلك أولى الدلائل المميزة والملحوظة في تجديد الشعر التونسي.

فبجانب الشعر الممثل لهذه الفنون العربية الكلاسيكية، كالمدح والهجاء والاخوانيات بأسلوب القصيدة التقليدي من جهة، والممثل من جهة أخرى لشعر الحيل الشكلية في أسلوب عصر التدهور -- بدأ يظهر في تونس انتاج جديد في الشكل بمحاولة المؤلفين الذين يمكن أن نعتبرهم مجرد طلائع للابداع المقبل للشعراء المجددين الذين أثروا الشعر التونسي فيما بعد بالمضامين الجديدة.

ومن هذا الإنتاج الطليعي شعر أحد الشعراء التونسيين الكبار وهو محمد الشاذلي خزندار، الذي اشتهر عام 1910 بأنه « أمير، الشعراء » التقليدي الراسخ العقيدة، الذي كتب بأسلوب المؤلفين العرب في القرون الوسطى، وقد حاول خزندار أن يبعث بشعره الحماسي في العرب روح النضال من أجل احياء الثقافة، وإيقاظ الأمة للتحرر من المستعمرين.

وبازاء اعجابه بالقيم الروحية للعالم الإسلامي رأى خزندار أن الطريق الى التقدم هو احياء تقاليد الإسلام الصحيح، والاستمساك بأسلوب حياة الأنصار المتحمسين للرسول محمد، وهم الخلفاء الراشدون.

والى جانب ذلك بدأت تظهر على صفحات الصحف التونسية مقالات، كان من أولها مقال عبد العزيز المسعودي عن « الشعر والتقدم »، الذي نشر عام 1903، حيث حاول الشعراء أن يطرحوا مشاكل رسالة الشعر، ومحاولات حلها، وتحديد دور الشعر، وامكانية تطوير النظام التقليدي للقصيدة، والانصراف عن الفنون المعتادة، كالهجاء والمديح.

ولقد عارضوا الشعر القديم كوعاء للمعلومات اللغوية، ونماذج كاملة من فنون البلاغة، ومجموعة من معلومات العرب التقليدية عن العالم ـ عارضوه بشعر عاطفي معاصر، وعبروا عن كل انطلاقات النفس البشرية بمحاولة اختيار شكل الشعر الحر. (21)

وابتعادا عن المحاولات الشكلية، واللعب بالتخميس والتشطير — وجد هذا الشعر نفسه قادرا على أن يتفطن الى كل ما يقع في العالم المعاصر، وعلى آن يحقق مطالب الحياة الواقعية، وعلى تجميل صورة الحياة، وعلى الدعوة الى النهضة الاجتماعية، والى النضال في سبيلها — وهذه هي رسالته الأساسية.

ومع أن موقف أنصار هذا الاتجاه أصبح يتأكد يوما بعد يوم، ويتوطد أكثر فأكثر، فإن وجهة نظرهم أثارت أكثر من مرة ذلك النقد الإيجابي لأنصار القديم، وهكذا ظهر على سبيل المثال في جريدة « المنير » عام 1920 مقال أبي تميم، الذي أوضح فيه المؤلف آن جميع المفاهيم التي تندرج تحت عنوان « الشعر المعاصر » اليوم شيء سيء، ولكي نصدر عليه حكما نهائيا علينا أن نشكل شيئا أشبه بمحكمة شعرية، بأن نعقد مؤتمرا في مدينة القيروان، وهي العاصمة القديمة لإفريقية منذ القرن السابع، والمعروفة بشعرائها. وعلمائها، والتي لعبت في القرن العشرين دور المركز للثقافة التقليدية.

ولقد استمر الجدل بين أنصار التجديد الأدبي والمعجبين بالاتجاه التقليدي سنوات طويلة لاصدار حكم لا دليل عليه، مبني على أساس سليم لنقد الشعر الجديد، ولم تكن نظراتهم البعيدة تقابل بتأييد إيجابي حتى لدى الشعراء الذين يسعون الى المحافظة على المقاييس الشعرية التقليدية، وهكذا.. ففي عام 1919 أيد الشاذلي خزندار أمير الشعراء موقف أنصار تجديد الشعر في المحاضرة التي خصصها لذلك في الجامعة الخلدونية عن « حياة الشعر وتطوره »، وقد أكد أن

الشعر هو قبل كل شيء صوت الروح، ولهذا فان رسالته الأساسية هي تصوير الإنسان وعواطفه وكل ما يشكل حياته.

ونرى لزاما علينا أن نشير الى أن الاتجاه الى تجديد أشكال الانتاج الادبي ومضامينه قد أصبح ملحوظا عند بداية العشرينات، حينما انتشرت في طول البلاد وعرضها أنباء الوقائع الثورية في روسيا، فأحدثت دويا هائلا بين الشباب التونسي(22) كما أثرت الانتفاضات المضادة للامبريالية والإرادة الثورية للشعوب في تركيا ومصر تأثيرا حتميا على وعي التونسيين، وكان الدور الأول لهؤلاء الذين أمضوا سنوات الحرب العالمية الأولى في أوربا في صفوف الجيش الفرنسي، او في عداد العمال المأجورين، وبهذه الصورة أصبحوا قريبين من الأحداث العالمية. ومع اختلافهم في استيعاب الأحداث الثورية فانهم قد فهموا مع ذلك أن عالم التمثيل المألوف والتكوين التقليدي يحتاج الى تغييرات حاسمة وجذرية.

وبمقارنة العالم الأوربي بالعالم الإسلامي استيقظ الفكر، ونشط الجزء التقدمي من المجتمع، واجتذبت الأفكار الجديدة عن نشوء الإنسان في الظروف المعاصرة أمزجة الشباب الرومانتيكي.

الطاهـــر الحـــداد

ولقد كان من بين ممثلي الشعر الجديد المتميزين في الأدب التونسي إبان العشرينات والثلاثينات الطاهر الحداد (1899 — 1935)، وأبو القاسم الشابي (1909 — 1934).

تلقى الطاهر الحداد تعليمه التقليدي في جامعة الزيتونة، وكان من أوائل تجاربه الشعرية بضع قصائد غنائيـة صوفيـة.

وفي عام 1920 أصبح عضوا في الحزب الليبرالي الدستوري الذي تم تشكيله في تونس عام 1919، ومن تلك اللحظة وجد نفسه في الأساس من العلاقات بين الأنشطة السياسية والاجتماعية.

والطاهر الحداد من أنصار فكرة الكاتب المصري قاسم أمين الذي نادى بتغيير الوضع الراهن من الناحية الاجتماعية والشرعية للمرأة في المجتمع الإسلامي.

وقد استمر الطاهر الحداد في تطوير آرائه، كما تأثر بأفكار قائد تجديد الإسلام جمال الدين الأفغاني، وذلك في كتابه « امرأتنـا في الشريعة والمجتمع ».

كذلك يكتب الطاهر الحداد عن وضع المرأة في البلاد العربية، فلا يجد له تبريرا قانونيا من الشريعة، وانما هو نتيجة ما تسرب لدى الشعوب المختلفة من عادات وخرافات قومية.

وانطلاقا من هذا يدافع الطاهر الحداد عن حق المرأة المسلمـة في التربية المعاصرة وفي التعليم، ولا ينبغي إطلاقا أن يجر ذلك وراءه انهيارا في الأخلاق.

وانتقاضا ضد الوضع المتدهور للمرأة في الأسرة والمجتمع اقتفى الطاهر الحداد أثر قادة الإصلاح في الإسلام، فعارض تعدد الزوجات، كما عارض الحجاب، وأكد أن كل هذه أمور لا تجد تعضيـدا

من القرآن، ولهذا فليس لها أساس شرعي، وإنما هي تنحدر من العادات الجاهلية القديمة لبعض القبائل العربية.

والتأييد الملموس للطاهر الحداد يتمثل فيما قدمته الحركة النقابية التونسية التي اختلفت عند هذا مع موقف قيادة حزب الدستور الذي كان مشفقا من تزايد التضامن العمالي، فطالب في عام 1925 بحل المنظمة النقابية للعمال التونسيين التي أنشئت في السنة السابقة باسم « الاتحاد العام للعمل التونسي ».

وقد كتب الطاهر الحداد كتابا عن تاريخ منظمة العمال التونسيين، وهو كتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » الذي كان في الحقيقة مخططا فكريا للحركة العمالية في البلاد.

ولقد ظل الطاهر الحداد خريج الزيتونة نصيرا للطريقة التقليدية في التعبير الشعري فيما بعد، لكن مجموعة موضوعاته الشعرية كانت جديدة تماما بالنسبة لهذه الآونة، انه يكتب عن فاقة الشعب ومسغبته، ويدعوه الى الاستمساك بالشجاعة، والمعارضة الحاسمة ضد الاستغلال، كما يكتب عن ضرورة تسلح الشعب بالمعرفة من أجل احراز النصر في نضاله.

ابو القاسم الشابي

والخواص الجديدة تماما هي التي ميزت ابداع مؤلف نابغة آخر في هذه السنوات يعد أكبر الشعراء التونسيين في القرن العشرين، وهو أبو القاسم الشابي الذي عاش حياة قصيرة جدا.

ولد الشابي في قرية توزر في جنوبي تونس، وتلقى تعليمه في المدرسة الابتدائية الإسلامية وأتم تعليمه المنزلي، وكان والد الشابي قاضيا، تلقى تعليمه الديني في أكبر جامعة إسلامية عربية، هي جامعة الأزهر، وفي السنوات المبكرة من حياة ابنه لقنه الأسس التقليدية لنظام العلوم الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والبلاغة، والأدب، والفلسفة.

ولم يكن الشابي يعرف أية لغة أوربية، لكنه أبدى اهتماما كبيرا بالأدب الأوربي، وحاول بكل امكانياته أن يتعرف عليه عن طريق مترجماته، وقد اجتذب انتباهه بشكل خاص ابداع الرومانتيكيين الفرنسيين، من أمثال ألفريد دي موسيه، وألفونس دي لا مرتين، وألفريد دي فينيه، وكذلك تيوفيل جوتييه.

وفي عام 1921 — وهي السنة الثانية عشرة من عمره — أصبح الشابي طالبا في جامعة الزيتونة، وفي عام 1925 كتب أول أشعاره في الهجاء، وهو هجاء لاذع لنظام التعليم الجامعي، والقواعد، ومعلمي القواعد المدرسيين القادرين على أن يغرقوا معاني الأفكار في بحر من الجدل اللفظي الذي لا ينتهي.

ومنذ عام 1926 بدأت أشعار الشابي تظهر على صفحات جريدة « النهضة »، ومنذ ذلك الوقت نشطت أعماله الاجتماعية، فقد كان يرأس طلاب الزيتونة المطالبين بتحسين طرق التعليم، والمشتركين فى إنشاء نادي الأدب التونسي، وكذلك منظمة الشباب المسماة « الشباب الإسلامي » التي كانت في ذلك الوقت واحدة من أنشط منظمات الشباب في تونس. (23)

وقد حاول الشابي أن يتم تعليمه الذي تلقاه في الزيتونة، فالتحق عام 1928 بمدرسة الحقوق التونسية التي انتهى منها عام 1930.

وفي عام 1927 ألقى محاضرة في جامعة الزيتونة عن « الخيال الشعري عند العرب »، وفي عام 1929 أصدرها في كتاب، حيث أعلن مبادئه في فهم الشعر، وتحرير الإبداع الشعري، ورفض حتمية مقاييس الشعر العربي التقليدي، ونادى باستيعاب الاشكال الجديدة، وتوسيع دائرة موضوعات الشعر العربي، وقد دوت أصداء هذه المحاضرة باعتبارها دعوة حارة الى تجديد الأدب الذي ينبغي أن يعبر عن جميع الأشكال المتنوعة، ومصاعب الحياة المعاصرة، وأن يمنح الإنسان المعاصر مكانته الأساسية.(24)

ويشير الشابي الخبير بالأدب العربي الكلاسيكي في هذه المحاضرة — التي يمكن أن نعتبرها بكل الحق منشورا ابداعيا — يشير فيها الى التباين بين مقاييس الشعر العربي ومقاييس المؤلفين الأوربيين، فالشعر العربي الكلاسيكي هو « معرفة » تقف بازاء « عاطفية » الشعر الرومانتيكي، والحذق في ابداع التعبير المجازي، والقواعد المصورة للكلاسيكية الوطنية، والتفنن في تغيير الموضوع التقليدي، أي الخيال الفني المستقل، هو « الخيال الشعري »، خاصة وأنه في رأي الشابي الموهوب قادر على بعث العالم الداخلي للانسان، وهذا هوأسمى رسالات الشعر.

واعتراضا على التحديد والجمود وثبات دائرة موضوع الأدب العربي التقليدي انتقض الشابي من أجل اتاحة الفرصة لابداع أكثر

اتساعا في شعر الحياة الواقعية ، مثله مثل إدراك الإنسان لعلاقاته بالعالم المحيط به، ومن الممكن أن يجيب الشعر هذه المطالب بالمساعدة على ترسيخ المثل الجديدة.

فالمهام الجديدة تتطلب أشكالا أكثر كمالا للتعبير ، ولذا فانه من الضروري التخلي عن التعبد بالرقى والتعاويذ وعن الاحتفاظ بالألفاظ والرواشم التقليدية للتعبير بها عن الوسائل والحدود الشعرية القديمة.

وكلاسيكية الأدب العالمي قادرة على أن تمنح كل شعر تنوعا ضخما في الشكل والموضوع ، وفي الوقت الراهن، حين يستمر احتكاك الثقافة العربية القومية على الدوام بثقافة الشعوب الأوربية فان من العسير أن يظل الأدب العربي في عزلته.

وفهم التأثير الإبداعي للرومانتيكية الأوربية على تحول الإنسان الى عالمه الداخلي يساعد على الاقتراب من تصوير مشاعره بأكبر قدر ممكن من التنوع والحركة، بأكثر مما تتصور هذه القواعد التقليدية، وعلى تعميق المضمون التأثري للشعر العربي.

ومع ذلك فان الشابي لم يدع الشعراء العرب الى التخلي اطلاقا عن التراث الكلاسيكي.

فاختصار الإنتاج الضخم الذي خلفه لنا الماضي وتهذيبه أمر جدير بالاعتبار، أما التقليد فانه لم يعد يسعف الشاعر المعاصر، بالإضافة الى أن الظروف الجديدة للحياة أصبحت تتطلب علاقات جديدة بالشعر ، وعلى الفنان أن يصور ما يرى ويحس بنفسه وقد تحرر من التقليد الأعمى — للنموذج.

و« الخيال الشعري عند العرب » ليس هو البحث النقدي الوحيد للشابي، فقد طور أصول منهجه الجمالي في بعض مقالاته، مثل : « شعرنا وشعراؤنا »، و« الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح» ؟ ، و « الأدب العربي في عصرنا ».

وأخيرا.. انتهت حياة الشابي وهو في الخامسة والعشرين من العمر لكن إبداعه كان غزيرا ومنوعا، ومن بين الأشعار المبكرة للشابي تلك التي تمثل اللون الآخر من انتاجه، وهي المجموعة التي تضمنها ديوانه « أغاني الحياة »، الذي نشر قبيل اعلان استقلال البلاد، عام 1955، وأكثر أشعار هذا الديوان مخصص للحديث عن تونس وطبيعتها، كقصائد « تونس الجميلة »، و« من أغاني الرعاة »، و«تحت الغصون ».

ومنذ البداية أثار الشابي في إبداعه موضوع رسالة الشعر في مثل قصيدته « شعري »، ومكانة الشعر من الحياة في قصيدته « الحياة »، لكن الشابي حينما فقد والده الحبيب فيما بعد وجد نفسه مرغما على مغادرة تونس بسبب التدهور الحاد الذي انتاب حالته الصحية، وحينئذ أخذت تسود شعره نغمات الحزن والكآبة والجزع، فهو يقول في قصيدته « شجون » : (25)

هذه صورة الحياة وهذا لونها في الوجود من أمس أمس
صورة للشقاء دامعة الطرف ولون يسود في كل طرس
في ظلام الكهوف أشباح شؤم وبهذا الفضاء أطياف نحس

وشجونه الخاصة يصحبها وعيه بفواجع بلاده، حيث يحرم الإنسان فيها من أساس حياته، وهو الحرية، فهو يقول في نفس القصيدة :

عجبا لي، أود أن أفهم الكو ن، ونفسي لم تستطع فهم نفسي
لم أفد من حقائق الكون الا أنني في الوجود مرتاد رمس

... ...

وخلال القصور أنات حزن وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس
والقضاء الأصم يعتسف النا س، ويقضي ما بين سيف وترس

وهذه الأنغام الرشيقة الأنيقة تتردد في ابداع الشابي بصورة قوية والى حد كبير، لكنها كثيرا ما تتغير في موضوع تأكيد الحياة، حيث يقول من قصيدة « الاعتراف » :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والألحان

وفي الأسلوب الإبداعي للشابي نحس في وضوح بتأثير الرومانسية الأوربية، وفهم الواقع في عالم سلبي مظلم، والسعي الى التحرر، والجمال كفكر أسمى، وتشخيص قوى الطبيعة، والاعجاب بالشعر، حيث يوجد صدى لانفعال الشاعر، وبكل هذا كانت تجيش أعماقه بالشعر الغنائي العاطفي.

لقد فتح مجالا جديدا في محيط الشعر العربي للمشاعر والأشواق الحيوية، وحاول أن يوجه خيالاته الإبداعية بكل قواها نحو تصوير العالم الداخلي للانسان في علاقاته مع قوة التأثير المضادة والحياة

المفعمة بالظلم والشرور ويلوم الشابي مواطنيه غير المبالين على خمولهم وسلبيتهم، فهؤلاء هم — في نظره — « أبناء الشيطان » :

وشقي طاف المدينة يستجدي ليحيا، فخيبوه احتقارا
أيقظوا فيه نزعة الشر، فانقض على الناس فاتكا جبارا
يبذر الرعب في القلوب، ويذكي —حيثما حل— في الجوانح نارا

وإذن فعلينا أن نقوض هذا العالم الظالم البغيض المليء بالدسائس والوصولية والبؤس والتعاسة التي يصورها في قصيدته « الدنيا الميتة » :

لاقلب يقتحم الحياة، ولا حجى   يسمو سمو الطائر الجواب
بل في التراب الميت، في حزن الثرى   تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
وتموت خاملة كزهر بائس   ينمو ويذبل في ظلام الغاب

كما يجب أن نمحو من مجموعة صور الحياة المقبلة الجديدة كل ما يكبل قوى الشعب، ويرغمه على أن يكابد، ويتعرض للموت، فهو يقول في قصيدة « النبيء المجهول » :

أيها الشعب ليتني كنت حطابا، فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهد القبور رمسا برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي كل ما يخنق الزهور بنحس
ليتني كنت كالشتاء أغشى كل ما أذبل الخريف بقرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فألقي إليك ثورة نفسي

ولا يقل عن ذلك قوة ما يدوي في إبداع الشابي من إيمان بمستقبل الحريـة المقدسة، حين يقول في مطلع قصيدتـه « إرادة الحياة » :

إذا الشعب يـوما أراد الحياة فـلا بد أن يستجيب القدر
ولا بـد لليل أن ينجـــلي ولا بـد للقيـد أن ينكسـر

ومن تفاؤله بذلك المستقبل العظيم والمجيد الذي يستشف فجره من وراء الغيب يصور ذلك في قصيدة « تونس الجميلـة » :

ان ذا عصر ظلمة ، غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيّع الدهر مجد شعبي، ولـكن سترد الحيـاة يـومـا وشاحـه

غير أنه قادر على أن يحرز انتصارا على الشر ، هذا الانتصار الذي أعد له العدة بأفكاره التقدمية التي يتصدى بها للواقع ، ويتمثل ذلك في أبياته الثلاثة التي جعل عنوانها « سر مع الدهـر » :

سـر مع الدهر ، لا تصدنـك الأهـوال أو تفزعنّك الأحداث
سر مع الدهر ، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعنك النفـاث
فالذي يرهب الحيـاة شـقـيّ سخـرت من مصيـره الأحداث

وموضوع التمرد ضد الظلم والاضطهاد يحظى منه بتعبير أكثر وضوحا في إحدى قصائده الرائعة، وهي قصيدة « الى طغاة العالم » :

ألا أيها الظـالم المستبـد حبيب الظلام عـدو الحيـاه
سخـرت بأنّـات شعـب ضعيف، وكفّـك مخضوبة من دماه
وسـرت تشوه سحر الوجود، وتبذر شـوك الأسى في رباه

تأمّل هنالك أنّي حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل ، سيل الدماء، ويأكلك العاصف المشتعل

وقد أبعد الشابي وراء النطاق كثيرا من الرومانتيكية العربية الخاصة بتصوير السعادة ، مثل العالم المثالي المجرد لتحرير الروح، والسعي الى التحرر من الطغيان والاضطهاد، وهذا ما حدد من درجة الحماس العالي لابداعه الوطني الأصيل.

وهكذا.. أصبحنا نستطيع ابتداء من الشابي أن نتحدث عن شيء اسمه التجديد الأصيل في الشعر التونسي.

يعزز ذلك أن الشابي لم يكن مبدعا في الجانب الفكري فحسب، بل كذلك في مجموعة موضوعات أشعاره، فقد حاول التجديد الكامل في شكل الشعر ومفردات لغته.

وبفضل الشابي وأنصاره تمت تحولات أصيلة في الاستعارات والصور في الشعر العربي.

والخصيصة الأخرى التي تميز بها أنه – وهو مثال لشاعر الحب الغنائي – أبطل معالجته عن طريق الرواشم الاصطلاحية التقليدية لأشكال الشعر التي كانت محببة من قبل، ولهذا تبدد على يديه نظام القصيدة العربية، وتلاشت القافية الواحدة والبحر الواحد.(26)

وأشعار الشابي تتباين فيما بينها تباينا كبيرا من ناحية اللحن والموسيقى، وبعضه يتردد كما يتردد الحديث اليومي غير المتكلف.

والبيت الشعري التعبيري الموجز هو في العادة وحدة كاملة منطقيا، مجازاته غنية بالمترادفات والاستعارات الجريئة، موجهة في النهاية الى القارىء بألفاظ وتراكيب تحمل اليه الشحنات الفكرية الأساسية، وكان كل هذا مما عزز الصبغة العاطفية لأشعار الشابي، وقوى من تأثيرها على القارىء.

ولم يصدر ديوان الشابي الا عام 1955 فحسب، لكننا — الى جانب أشعاره — التقينا في ابان حياته بعدد غير قليل من أعماله.

وبالإضافة الى أشعاره وجدنا شهرته تتسع لا في تونس وحدها، ولكن كذلك في خارج البلاد، ففي الثلاثينات كانت مجلة أبوللو المصرية — على سبيل المثال — تنشر أشعارا للشابي في كل عدد من أعدادها تقريبا، ولهذا ذاعت شهرة هذا الشاعر التونسي في جميع أقطار الشرق العربي بين كتاب بلدانه وشعرائها، فأصبح ذا شهرة منقطعة النظير.

كذلك أوجدت له طريقته الإبداعية كثيرا من الأنصار والحواريين، قاموا في مواجهة الشعر التقليدي، سواء في تونس أو في غيرها من أكثر البلدان العربية، مثل شوقي بغدادي في سوريا، ومعروف الرصافي وبحر العلوم في العراق. (27) وكمال نشأت في مصر، واسماعيل حسن في السودان، وكثيرين غير هؤلاء وأولئك.

بعد الشابي

بعد الشابي بدأ الشعر التونسي يتطور بطريق آخر تماما، فقد ثارت أمام مؤلفيه بالطريقة الجديدة قضية رسالة الشعر، والهدف من

ابداعه، فأخذ بعضهم يستلهم لكل موقف معاصر حالة مشابهة له من ماضي الشعر البعيد، الذي يرجع الى أيام جاهلية العرب، يوم كانوا ينسبون دور الشاعر الى المنبر السياسي الذي ينتمي إليه.

هكذا فهم رسالة الشعر في المجتمع المعاصر واحد من ممثلي الحزب الدستوري بالذات، وهو محمد محيي الدين. (28)

والواقع أن حركة التجديد في الشعر في تلك الاونة لم تكن تنفصم عن الحركة الاجتماعية، ونضال القوى التقدمية في المجتمع التونسي ضد الجمود والخمول، وكل ما كان يحرك البلاد لكي تخلص نفسها من التخلف والاضطهاد.

النثـــر الفنـــي

وربما لهذا السبب يبدو النثر الفني أقل إنتاجا من الفنون الأخرى، حيث تندمج مهمة الكتابة السياسية والكتابة الاجتماعية والأدب معا، وقد أمكن استخدام هذا النموذج الأخير في الكتاب السياسي الذي ألفه واحد من قادة الحركة الوطنية التونسية، هو عبد العزيز الثعالبي (1874 — 1944)، وذلك هو كتاب « تونس الشهيدة » الصادر عام 1919، والذي نشر في باريس غفلا من التوقيع، قد استطاع به الثعالبي أن يضع أمام مؤتمر باريس الدولي قضية إعادة دستور 1881 الى تونس، ثم نشر في تونس بطريقة سرية.(29)

ولقد أحرز هذا الكتاب شهرة ضخمة، نتيجة نشر مقتطفات منه في الجرائد التونسية، وحتى تلك اللحظة لم يكن الثعالبي معروفا

الا باعتباره مؤلفا لتلك المقالات التقليدية التي تشيع فيها روح التربية الزيتونية، مثل « حياة سيدنا محمد »، و« روح القرآن ». (30)

أما كتاب « تونس الشهيدة » فهو إنتاج مخطط تماما، وهو على غير العادة، تتضح فيه قوة الإقناع، والحدة الجدلية، وهو يفضح كل أوزار النظام الفظيع للاضطهاد الاستعماري، ويفصّل برنامج عمل دقيقا قادرا على أن يسير بالبلاد الى التحرر الوطني، والبرنامج الذي صدر بعد ذلك بوقت قصير، وهو برنامج الحزب الدستوري، انما كان صورة طبق الأصل للمطالب الواردة في هذا الكتاب. والتي التزم الحزب بتأييدها وتقديمها للبلاد. (31)

علي الدوعاجي

والواقع أنه لم يظهر في تونس على امتداد الربع الأول من القرن العشرين انتاج على جانب كبير من الأهمية في مجال النثر الفني. اذ لم يبدأ التونسيون في التعرف على هذا اللون من الإنتاج الا في بداية الثلاثينات، حينما ظهرت القصص الأولى لعلي الدوعاجي (1903 — 1948). (32)

بدأ علي الدوعاجي حياته الخاصة بالعمل التجاري، ثم أخذ في تثقيف نفسه، ثم اشتغل بالصحافة.

والنشاط الإبداعي الكبير لعلي الدوعاجي يتجلى إبان عمله بالإذاعة التونسية، اذ كان يعد البرامج الإذاعية وخلال ذلك كتب

أكثر من خمسمائة قصيدة وأغنية للأطفال، وعدا هذا ألف خمس عشرة مسرحية. (33)

وكانت المعارف التي تلقاها في المنزل وفي المدرسة الابتدائية باللغة الفرنسية كافية لكي يتعرف على الكثير من إنتاج الأديبن الأروبي والأمريكي، فأعجب بمواهب لندن، كما أعجب بعبقرية همنجواي، وشتاينبك، وكولوديل، مما أثر في أسلوبه الإبداعي الذي لم يبد فيه عنصر تأثير هؤلاء المؤلفين على إبداعه فحسب، بل أكثر من ذلك بدا فيه الاقتباس المباشر لمحور العمل الفني.

وقد اعترف الدوعاجي نفسه بذلك حين سمى احدى مسرحياته باسم « راعي النجوم » تقليدا لعمل جاك لندن « جوّاب بين النجوم ».

وتتجلى موهبة الدوعاجي الفكاهية في مسرحياته، ففيها سخرية لاذعة من القصور البشري، مما أتاح للنقد أن يقارن بين الدوعاجي وبين موليير.

وكان انتاج الدوعاجي المستقل — أومقتطفات منه — يذاع عن طريق الإذاعة، أو ينشر في الجرائد، وأحيانا في المجلات، الا أن معظم إنتاجه النثري ومسرحياته بقيت مخطوطة، ومن أكثرها عبقرية — بشهادة المعاصرين — « شارع الأقدام المخضبة بالدماء ».

لقد بقيت أغلبية انتاجه مخطوطة لأنه لم يسمح لنفسه أن يوافق بهذه الصورة المهينة على شروط الناشرين الذين يعرضون أجوار زهيدة لنشر مؤلفاته.(34)

ومن شهادات معاصريه على قيمة انتاجه ما يقول الناقد التونسي المعروف محمد فريد غازي : « .. في اليوم الذي تنشر فيه قصص الدوعاجي ورواياته يمكن أن ندرك أنه كان لدينا أقدر مؤلف قصة عرفه العالم العربي في هذه الفترة، وهو قصاص لا يقل عن أحسن كاتب أوربي أو أمريكي ».

وفي عام 1962 صدر كتاب مستقل يحمل أشهر أعمال الدوعاجي، وهو « جولة بين حانات البحر المتوسط »، وبه اكتسب فن المقالة العربية التقليدية عن الرحلات مؤلفا لا « ليروح عن القارىء »، ولا لتصوير الانغماس في السكر والعربدة في الموانىء فحسب - كما يعلن المؤلف في مقدمته - لكنه كذلك يقدم صورة ساخرة سخرية لاذعة بالأخلاق، ويبرز للتونسيين بطريقته النقدية جانبا من جوانب صور الحياة الغربية بصورة واضحة ومدركة.(35)

محمود المسعدي

أما أكثر أحداث الأدب التونسي أهمية في القرن العشرين فهو ظهور مسرحية « السد » للكاتب المسرحي التونسي محمود المسعدي، التي أصدرها عام 1955، وهي إنتاج ينتمي من حيث الشكل الى الفن الدرامي، لكنها في الحقيقة شبه مسرحية، ومن المشكوك فيه أن تكون مؤلفة للتمثيل على المسرح، بل انها تصوير بطريقة خاصة لأحداث الحياة، أو هي بالأحرى مسرحية فلسفية للقراءة.

ففي الوقت الذي كانت تكتب فيه مسرحية السد كان الأدب العربي المعاصر يجتاز تجربة من نوع مماثل، فالكاتب المسرحي

الكلاسيكي المصري توفيق الحكيم يقف معارضا للرأي الشائع الذي يقول إن المسرحية لا يمكن ان تستخدم بهدف التسلية فحسب، بل يجب أن يكون مثلها مثل أي فن أدبي آخر، يتولى حل المسرحيات الفلسفية الرمزية المطبوعة بالطابع التأملي الافتراضي بصورة بحتة، مثل «شهرزاد»، و «أهل الكهف»، و «بيجماليون» وغيرها.

وفي الشكل الرمزي يتجسد موضوع النضال بين المتناقضين : بين العقل والقلب، بين الحرية والقدر، بين الفن والحياة.

ومسرحية «السد» للمسعدي في شكلها التعبيري الرمزي تصور كذلك فكرة عدم الجدوى من نضال الإنسان ضد القدر من جهة، ومن جهة أخرى هي شهادة على سمو النضال في سبيل الرأي، والثقة في هدف نضال الفرد حتى تجاه الموت المحتوم.

فالأحداث تتطور في الوادي القاحل، حيث يكابد الشعب من الجفاف الدائم، ومن هنا فان الذي حدث هو أن لأجنبي غيلان يقرر أن ينتهي الى الاستسلام، وهو شيء عادي بالنسبة لسكان الوادي، وذلك بالاذعان أمام الآلهة القادرين على كل شيء، وأن يبني السد الذي ينقذ الناس من التهديد المستمر بالجوع والرعب أمام غضب الآلهة.

وفي صراع غيلان الفردي مع الطبيعة والالهة احتمل واحدا وراء الآخر من ألوان الاخفاق.

فالعاصفة، والضجيج، وتمرد العمال، كل هذا كان يبدو من الضروري أن ينتفع بتحذيره، وأن يتذكر أن موته سهل، لأنه ضعيف بإزاء سلطان الآلهة، لكن لا شيء يمكن أن يرغم البطل على أن يتخلى عن خطته بأن يتم بناء السد.

وتنتقم الآلهة منه على عدم خضوعه، فتثور الطبيعة، وتدمر السد، أما غيلان وزوجته فيموتان بفعل الزوبعة الخاطفة.

والمسرحية مكتوبة باللغة الأدبية، وذلك باستعمال الوسائل التشبيهية التقليدية، ويفترض أنه يضع في أساس الرسم التخطيطي المحوري أحداثا واقعية من التاريخ العربي، فقد تم تدمير السد في اليمن القديمة، ولا يمكن أن يقال إن تنظيم مسائل نضال الإنسان ضد الشر، وإظهاره بمساندة الوسائل الرمزية – ظاهرة غير معروفة بالنسبة للأدب العربي، إنه يلتقي في إنتاج الكتاب في القرن العشرين.

وبالإضافة الى ذلك فان انشاء الأدب الدرامي الأكبر حجما، والأكثر موضوعات، الذي تجلت فيه ملامح البطل الملحمي كان بالنسبة للأدب التونسي ظاهرة جديدة تماما، وكما ظهر الجديد استعملت الوسائل الأسلوبية التقليدية للنثر العربي كباعث محوري الى ما ليس تقليديا مطلقا، ومعالجة المشاكل المميزة للقرن العشرين فطنة خاصة للانسان المعادي للقوى الجبارة.

ونتيجة لخلط المركبات غير المتشابهة مطلقا لم يظهر انتاج غير عادي فحسب، بل ظهر انتاج عبقري، حيث يؤدي الإدراك

الفلسفي للصراع بين المثل الأعلى والواقع يؤدي بالمؤلف الى فكرة ضرورة النضال المحتوم ضد الشر حتى بثمن التضحية.

وفي النقد التونسي كثيرا ما يقارن السعدي بكامو، ويقال إنه طور في « السد » ذلك الموضوع الذي هو مخصص للطاعون، وصخرة سيزيف، ولكن يبدو أنه ليست هناك أسس كافية بالنسبة لهذه المقارنة، حيث لا يشتم لدى المسعدي أي تفطن لأحداث معينة في هذه العصور المعينة في هذا الانتاج غير الموجه الى غرض معين لتمرد البطل.

ومن المحتمل بالنسبة لفكرة التشابه بين هذين الإنتاجين أن يؤدي نفس الوضع لدى المسعدي الى موضوع التمرد الخاص ضد خطل الكيان، وضد تهيج قوى البيئة، والسلطة القادرة على كل شيء من الآلهة المنتقمة، وكذلك بعض الصور التقريبية لغيلان، وهي صور متناقضة في الظاهر، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن استعمال المؤلف للأدب الخاص بمذهب الوجودية لطوائف العالم غير المعقول الذي ثار على الشخصية — حتى غير المتناسبة مع الحقائق المقررة للحياة الاجتماعية — قد وجد في ظروف الواقع الاستعماري، التحديد الاجتماعي، والمغزى السياسي المكشوف.

وفضلا عن السد فإن هناك زواية أخرى تنسب الى قلم المسعدي، هي رواية « مولد النسيان »، الصادرة عام 1945 (36) وهي عمل متعدد الموضوعات، ذو مغزى فلسفي باطني، يعني المسرح الخيالي والشخصيات الواقعية، وفي بؤرة مأساته الانسان الذي فقد — بموت زوجته — قدرته على الحياة في العالم الراهن.

وحب الزوجة الثانيـة لا يمكن أن يخلص الطبيب المديـن من عـذاب النفس.

ومحاولة للخلاص من الذكرى يكرس نفسه لاختراع شراب سحري للنسيـان، وحينما يبحث عما يؤدي الى النجاح يتناول الأكسير، فيمـوت، لأن شيئا آخر ـ عدا الموت ـ لا يمكن أن يساعد الإنسان على أن يهرب من ماضيه. (37)

وبهذه الصورة تكون محاولة الهرب من الواقع تجردا صـناعيا من المشـاكل المؤلمـة يكشف عن افلاسه.

وفي قصص المسعدي المكتوبـة بروح الإكبار القصصية العربية التلقيدية في أشكال محورية مختلفـة ـ تتكرر مجموعة الموضوعات التي يبحث فيها الإنسان بطريقة مـا عن مثلـه الأعلى.

وفي محاولة الهروب من الواقع، والسعي الى التحرر من الأعراف والتقاليد المكبلـة للحياة المعتادة ـ لقيت هذه الجهود حظهـا في العالم المثالي للجمـال، وعلى سبيل المثال في الاتحاد مع الطبيعـة.

وإبداع المسعدي يشهد له بسعة الاطلاع، والتضلع في مجـال الأدب العربي في القرون الوسطى، وفي التاريخ، والفلسفـة، كمـا يشهد له بالبراعة وتملك ناصية اللغة العربية الـكلاسيكيـة، واستيعاب الاتجاهات الغربية المختلفـة في الفلسفة والأدب.

وبمجموعة موضوعاته، وبطريقته الإبداعية الخلاقة ـ يصبح من العسير أن نعثر على كاتب يضارع المسعدي في الأدب التونسي المعاصر.

ففهم إنتاجه الذي يختلف تكوينه بين الاجتماع والافتراضات الفلسفية ليس ميسورا البتة بالنسبة للجميع (38) ولهذا السبب فإن رواياته وقصصه لا تتمتع بقدر كبير من الشهرة، ومع ذلك فباسمه ترتبط واحدة من أهم مراحل التكوين والتطور الإبداعي في الأدب التونسي.

البشير خريف

أما الناثر التونسي الكبير البشير خريف فرجع إبداعه الى الثلاثينات، ويتميز اتجاهه بأنه من أنصار المذهب الواقعي.

أنهى البشير خريف دراسته بجامعة الزيتونة عام 1947، حينما كان عمره ثلاثين عاما.

ونشر أول قصصه عام 1937، ثم أخذ يبدل في اتجاهه خلال عشرين عاما، وخلال عقد من السنوات تداول عشرات المهن، وقبلما يستقر نهائيا على رأي أصبح كاتبا.

ومع انتاج خريف الأول اهتدى الى أسلوبه الذي لم يظفر في بداية الأمر باعتراف نقاد الأدب.

انه يكتب الأدب الغض الفصيح، ولكن بلغة تتسم ببعض الصعوبة، وعباراته الشعبية غزيرة، وهو يفضل أن يدير الحوار بالعامية، ويعتقد أن اللغة الشعبية يمكن ـ بل يجب ـ أن تخصب الأدب.

وفي عام 1957 نشر البشير خريف في مجلة « الفكر » رواية « الإفلاس »، حيث عرض حياة البورجوازية الصغيرة في تونس، والمثقفين التونسيين في فترة ما بين الحربين العالميتين.

والرواية تحكي قصة حب الشاب سليم البرجي حبا لا ينتهي للممثلة لطيفـة، وهو ممثل نموذجي للمثقف، لـكنه لا يملأ مكانه في حيـاة شباب العشرينات.

وعلى سبيل المثال يعرض الـكاتب من خلال مصير البطل الرئيسي معالم الإفـلاس الأخلاقي لقطاع من المثقفين التونسيين الذين تلقوا تعليمهـم في الزيتونة، وتربوا على روح التصورات العقائديـة والأخلاقية التقليدية التي تبدو في نظرهم ثابتة لا تتزعزع، وفـي اصطدامهم بالحياة الواقعية، وبالناس ذوي الأخلاق الأخرى — يكون من السهـل أن يدمروا كل قوانين الشـرف.

والرواية مليئة بصور الحياة اليومية، وهي تعرض بوضوح أخلاق البيئة المسرحيـة.

وقد حققت حيوية الموضوع، واللغة الشعبية الحية لهذا الإنتاج. نجاحا ضخما تفوق حتى على نجـاح « السـد » للمسعدي.

وفي عـام 1960 حصل الـكاتب من أجل روايتـه هذه على جائزة علي البلهـوان الوطنية. (39)

وفي نفس العام — 1960 — أصدر خريف روايته الثانية « بـرق الليل »، وأبطالها ينتمـون الى القرن السادس عشر، وكان المعتقد منذ البدايـة أنها رواية تاريخية، لـكن اتضح من تطور الأحداث أن موضوعها يدور حول حب آثـم بين العبد وزوجة سيده، فالعبـد ابن السابعة عشرة، المشترى من سوق الرقيق يقع في غرام زوجة سيده

الكيمائي، وعندما يعلم الزوج الغاضب بلقاءاتهما يسارع الى طرد العبد وطلاق الزوجة، لكنه سرعان ما يقرر أن يسترجع زوجته، لكنه لكي يسترجعها لا بد لها أن تتزوج زوجا آخر حتى تحل له طبقا للشريعة الإسلامية، وحينئذ يلجأ الى طريقة المحلل، بأن يزوجها لشخص ما زواجا صوريا مؤقتا، ولا يجد أنسب من برق الليل ليقوم بدور المحلل، لكن برق الليل يستغل هذه الظروف، فيرفض طلاق الزوجة لتعود الى زوجها الأول وهو سيده.

والرواية تقوم على أساس المعرفة العميقة بالمادة التاريخية للقرن السادس عشر، والواقعية المعاشية الهامة لذلك العصر، والكاتب ذو استعداد طيب كذلك لكتابة رواية السيرة الذاتية.

ونثر البشير خريف مشهور جدا في تونس كما رأينا، وقد ساعد على نجاحه الأسلوب الواقعي في قصصه، ووضوح قضاياه، واستخدام اللغة الشعبية، والنقد التونسي يعتبر البشير خريف كاتبا قوميا أصيلا.

العروسي المطوي

والى الجيل المبكر من الناثرين التونسيين ينتسب كذلك محمد العروسي المطوي.

ولد المطوي عام 1920، وأكمل دراسته بالزيتونة، ثم في كلية الحقوق بالخلدونية.

وبعد اعلان استقلال البلاد كرس المطوي نفسه للخدمة الدبلوماسية، فكان ملحقا ثقافيا بالقاهرة، ثم قائما بأعمال شؤون السفارة التونسية في جدة و(سفيرا) في بغداد، ومنذ عام 1962 أخذ يشغل المناصب الحكومية المختلفة في تونس .

ومنذ عام 1966 والمطوي يرأس تحرير مجلة الكتاب المبتدئين من أعضاء نادي القصة الأدبي، حيث يقدم مساندته الملموسة للناثرين التونسيين من الشباب.

وكثيرا ما يأخذ المطوي لنفسه زمام المبادرة في إصدار مجموعات من أشعار الشعراء الشبان، التي يصدرها لهم بمقدمات تمهيدية. (40)

والى قلم محمد العروسي المطوي تنتمي طائفة من الأعمال التاريخية والأدبية، مثل كتابه عن العالم اللغوي في القرون الوسطى : جلال الدين السيوطي الذي عاش في القرن الخامس عشر، والشاعر الجاهلي امرىء القيس، وبحث في تاريخ الحروب الصليبية.

وشهرة المطوي الكبيرة ترتبط بروايته « حليمة »، الصادرة عام 1962، والتي من أجلها استحق جائزة المجلس البلدي، وقصة « التوت المر » الصادرة عام 1967.

وتقوم رواية حليمة على أساس الأحداث الواقعية، وتعكس النضال ضد انهيار الأخلاق في سنوات الحماية الفرنسية.

وفي بؤرة قصة التوت المر تبدو القوة الشابة الكاملة للفتى عبد الله الذي اشترك بفاعلية في النضال ضد الإجراءات السرية لانتاج الحشيش والاتجار فيه، مع أعضاء ممثلي السلطة المرتشين.

وعبد الله هو عاشق عائشة الفتاة المشلولة، ابنة الفلاح الهارب من مطاردة الطليان في ليبيا.

والانفعالات العنيفة هي التي أصابت عائشة بالشلل، لكن اتجاه عبد الله الى الهدف بحماسه الملتهب المؤيد بالثقة في الانتصار للخير، والقادر — في رأي المؤلف — على خلق المعجزات والعودة الى مباهج الحياة هو الذي يبريء عائشة الحبيبة الملهمة من مرضها المزمن.

رشاد الحمزاوى

ومن شباب الكتاب الذين أثاروا الاهتمام رشاد الحمزاوي الذي ولد عام 1934، وقصته « بودودة مات » الصادرة عام 1962 تحكي عن أطفال القرية الذين قرروا أن يجمعوا النقود من أنفسهم ليفتدوا من السجن صديقهم المسجون بتهمة سرقة رغيف خبز.

ولقد ظفرت هذه القصة بعدد من الجوائز الأدبية.

ويتميز الحمزاوي بعمق الفكرة، واسترجاع ظلال المعاني والأحاسيس المركبة، ويحاول التفطن الى جوهر العلاقات الإنسانية وحب الطبيعة.

وإلى جانب أن القصة رائعة، فانها انعكاس واضح لحياة القرية التونسية.

محمد المرزوقي

وهذا واحد من أشهر كتاب القصة التونسية هو محمد المرزوقي.

ولد المرزوقي في جنوبي تونس عام 1916، وبعد أن تلقى تعليمه في الكتاب ثم في المدرسة الابتدائية درس في الزيتونة، ثم في الخلدونية، وبعد انتهائه من مرحلة التعليم الجامعية اشتغل المرزوقي بالصحافة، وعمل بالإذاعة.

وفي طريق الأدب بدأ المرزوقي بالأعمال النقدية الفلسفية. ففي عام 1935 أصدر كتابه الأول «آراء المعري وعقيدته». وفي عام 1936 أصدر كتابه «أشعة الجمال». وفي عام 1946 أصدر مجموعة أشعاره، وهي في معظمها ذات طابع رومانتيكي، وقد جعل عنوانها «دموع وعواطف». (41)

ثم أعطى المرزوقي فيما بعد أفضلية خاصة لكتابة القصة.

وفي قصصه الكثيرة العدد، المكتوبة بين عام 1946 وعام 1967، والمنشورة في أربع مجموعات نجد انعكاسا لمشاكل الحياة التونسية المعاصرة من وجهاتها الاجتماعية والأخلاقية الكثيرة التنوع، التي حاول المؤلف أن يعالجها عن طريق إبراز أبطالها في الصور العديدة والمميزة من الواقع التونسي في مواقف تصادم الثقافتين الشرقية والغربية، والعالمين التقليدي والجديد، وهما شديدا التباين، ومن العسير أن يتعايش أحدهما مع الآخر لاختلاف أساليب تربية الشباب التونسي المعاصر الذي يستهدي في المعاهد التعليمية بالغرب وفي الأسر الوطنية بالأساليب التقليدية.

وقد أعطى المرزوقي اهتمامه الكبير لجمع التراث الفولكلوري، والبحث في انتاج الإبداع الشعبي الشفوي، ففي عام 1967 قام بنشر كتاب ضخم من الفولكلور التونسي بعنوان « الأدب الشعبي في تونس »، وهو نتاج نشاط سنوات عديدة في جمع وتسجيل ومعالجة وبحث الشعر الشعبي المصوغ باللغة الدارجة في الأقاليم الجنوبية من البلاد أساسا.

والإنتاج المعاصر للشعراء الشعبيين باللغة الدارجة مشهور في الأداء الشفوي.

وعمل المرزوقي جدير بالاهتمام الأكثر جدية، ما دام في هذا الإنتاج القومي الحقيقي حتى هذه اللحظة ما يوحي بأحسن التقاليد في شعر الجاهلية الذي هو جدير لا بالحفظ فحسب، ولكنه جدير كذلك بالدعوة لهذا الشعر.

كاتبات تونسيات

وقد اقتحم ميدان النثر التونسي كاتبات، برز من بينهن ناجية ثامر، مؤلفة القصص والمسرحيات، وليلى بن مامي، التي أصدرت عام 1967 مجموعة رائعة من القصص بعنوان «منارة في ألسنة اللهيب»(42) والقصص تجمع بصورة مباشرة بين المرأة التي تناضل في سبيل حقوقها في حياتها الخاصة، ومحاولة الانتصار على تحامل الرجل المسلم الذي يعتبر كل ظاهرة لاستقلال ذاتية المرأة وكأنها إهانة له، وإجحاف بعزة رجولته.

الادب باللغة الفرنسية

وفي السنوات العشر الأولى من هذا القرن ظهر الأدب التونسي المكتوب باللغة الفرنسية، وقدم عديدا من المؤلفين الكبار الذين تميزوا في كل جوانب الإبداع، وشاركوا في علاج المشكلات الاجتماعية الهامة.

ومن أبرز شخصيات هذا الأدب المؤلف الروائي، والكاتب الاجتماعي السياسي، والباحث في أدب شمالي إفريقيا ــ ألبير ممي، المولود عام 1929، والذي يعيش الآن في فرنسا. (43)

ينحدر ممي من أسرة يمتزج فيها العنصر العبري بالعنصر البربري، من سلالة رحلت الى اقليم تونس في القرون الأولى، وشكلت في البلاد أقلية قومية مثلها مثل البربر. (44)

وممي في رواية سيرته الذاتية المعاشية « تمثال من الملح » الصادرة عام 1953 يقاوم بشدة ضد الجمود واستبداد الأوضاع التقليدية، الا أننا في عمله التالي وهو « اجار » الصادر في عام 1954 ــ الذي يمكن أن ينسب الى فن الرواية الأسرية السيكولوجية ــ نجد بطل ممي، المثقف، الذي يتلقى تعليمه العالي في فرنسا، يصبح بطريقة حاسمة في جانب المتخلفين من جهلاء المواطنين المستخفين بالغرب « المتحضر »، ويؤدي به هذا الى الانفصال عن زوجته الفرنسية التي تحتقر أقارب زوجها. (45)

ورواية ممي « وجه المستعمر » التي صدرت عام 1957 تلعب دورا هاما بسبب انتشارها الواسع في بلدان المغرب، وإثارة الأمزجة الثورية هناك. (46)

وفي الستينات أنجزت باشراف ممي مجموعة من البحوث المتخصصة في أدب شمالي افـريقيـا.

هكذا بدأ النشر التونسي المعاصر يتشكل في فترة تعاظم الاضطهاد الاستعمـاري الـكبير ، وفي ظروف الأزمـة الاقتصادية والسياسية التي نشبت في فترة الثلاثينـات. (47)

لقد كانت بعض الطوائف من منقفي البلاد في ذلك الوقت تحمل المزاج العدائي في علاقاتها بالأرستقراطية الإقطاعية التونسية والسلطات الاستعمار يـة.

أما البعض الآخر فلم يكن يرى امكانيـة قيـام نضال واقعي ضد المستعمـرين، بل حاول أن يحتفظ بالنمط التقليدي، إذ كان يخشى مغبـة التغيير في صور الحياة المعتادة.

وفي عـام 1934 وضعت قيـادة التعليم في يد حزب الدستور الجديد، الذي أخذ يبحث عن أنجع الطرق وأمثل الوسائل للنضال الوطنـي التحرري. (48)

وأكثر من مرة في هذا الوقت من مرحلة اليقظة تعرضت الحركة التحرريـة للمطاردة البوليسيـة، وكان غـزو حكومـة الجبهـة الشعبيـة للديمقراطيين الأحرار وسيلة للقضاء عليهم، وتنكيلا جماعيا بالجماهير.

لم يعكس الأدب التونسي كل هذا النضال السياسي العاصف في البلاد، لـكن جميع الـكتاب تقريبا كانوا فيما بعد شهودا عـلى التزايد المطرد في الوعي القومي، وفي القوى المضادة للاستعمـار،

وقد وضع في هذا الشكل أو ذاك من أشكال المسائل محاولة الإنسان الاعتراض والتحرر، وليكن ذلك تحررا من الاضطهاد السافر، أو من العرف، والعادات المترسبة التي تتحدد شيئا ما في هذا النطاق.

ولقد وجد في الأدب باستمرار تجسيد لمشكلة البحث عن نماذج، سواء في الاتفاق، أو في التهذيب الأخلاقي، أو في محاولة تجميل عالم الفكر بالعدالة والسعادة.

وبعد إعلان الاستقلال شغلت المكانة الكبرى في النثر مجموعة الموضوعات الاجتماعية التي كانت تتجه الى التصوير الواقعي، وكانت كثرة عدد المؤلفات عن حياة الكتاب – فيما يرى الأدباء – علامات حقيقية على تأكيد الطابع القومي للأدباء.

أما صعوبات النشر المستمرة فقد كانت وما زالت تؤثر تأثيرا حتميا على خصائص الإنتاج وأشكاله، فمعظم الإنتاج مخصص للمجلات الدورية، ومن هنا جاء إيثار الأشكال القصيرة، وعرض بعضها بأسلوب المضابط، وأحيانا يحشر في القصة مضمون رواية كاملة، فتصبح أشبه بموجز لحوار الأوبرا الذي يسجل الأحداث الأساسية.

وكثير من الناثرين التونسيين يسيرون في طريق إتقان فن الكتابة، فقد يتقدم الكاتب في فنه بالتغلب على الكثير من نواحي القصور كالدعاية، والحماس الكاذب، والاسراف في إبداء العواطف الشديدة الحساسية، والصراحة المكشوفة، والمشاركة الحنون للمحرومين وكذلك بعض المفاهيم السطحية للخصائص القومية.

على أن معظم الكتاب يقيمون حساباتهم على أن ابداع الأدب المتنوع الأصيل مرتبط حتما بتحسين الطريقة الإبداعية، وتعميق المعارف في داخل الإطار، سواء أكان إطار الثقافة القومية أم إطار الثقافة العالمية.

أما الشعر التونسي المعاصر - الذي نشط في السنوات العشر الأخيرة بأسرع مما نشط النثر - فقد استجاب للتحولات الكبيرة في الحياة السياسية للبلاد، ولو أنه كان عليه كالعادة أن يؤدي ضريبة الرومانتيكية.

وبالنسبة لمضمون الشعر فيمكن أن نعتبره جديدا تماما، أما ما يتعلق بالشكل والمقاييس فهنا يمكن أن نلتقي بمعجبين من مختلف الألوان والاتجاهات الشديدة التباين.

فبازاء المقاييس التقليدية يقوم الشعر الحر وشعر الموشحات.

وفي تونس يعيش كذلك الشعر الشعبي الغزير المادة، القائم على الإبداع الغنائي، ومن الممكن أن نجد فيه أصداء لكل أحداث الحياة السياسية من السجن والنفي الذي تعرض له الزعيم بورقيبة عام 1934، الى جلاء الجيوش الفرنسية عن البلاد بعد اثنين وثمانين عاما من الاحتلال.

وفي الآونة الأخيرة أصبح الشعر الشعبي أكثر موضوعات النقد التونسي أهمية.

بهذه الصورة يتضح أن تكوين الأدب الجديد في تونس وثيق الارتباط بالإصلاح الجوهري للفنون التقليدية، وقيام فنون جديدة تستجيب للمطالب الحيوية الملحة وحاجات العصر.

اهم المراجع

اولا : فى اللغة الروسيـــة :

1 ـ محمد فريد غازي : مشكلات النثر التونسي المعاصر ـ مجموعة الأدب العربي المعاصر ، موسكو ، 1960.

2 ـ داتلين : شعوب تونس والجزائر والمغرب في نضالها من أجل الاستقلال ، موسكو ، 1953.

3 ـ دولينينا : القصة في بلاد المغرب ـ « أرضنا العزيزة » ، مجموعة قصص لكتاب المغرب وتونس وليبيا ، موسكو ، 1967

4 ـ دولينينا : نبذة عن تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث ، موسكو ، 1968.

5 ـ جيسولين : تاريخ افريقيا المعاصرة ، تونس والجزائر والمغرب من الفتح العربي حتى عام 1830 ، موسكو ، 1961.

6 ـ زافادوفسكي : اللغات العربية الدارجة في المغرب موسكو ، 1962.

7 ـ زافادوفسكي : أدب تونس الى الحرب العالمية الثانية ، مجموعة « أدب وفولكلورشعوب افريقيا » ، موسكو ، 1970

8 ـ زافادوفسكي : الأدب التونسي، « أفريقيا »، دائرة المعارف، مجلد 2، موسكو، 1963.

9 ـ ايفانوف : تونس المعاصرة، موسكو، 1959.

10 ـ ايفانوف : أزمة الحماية الفرنسية لتونس (1918 ـ 1939)، موسكو، 1971.

11 ـ تاريخ أفريقيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، موسكو، 1967.

12 ـ كراتشكوفسكي : مصطفى كامل وجولييت آدم، مجموعة المقالات، مجلد 3، موسكو ـ لينيجراد، 1956.

13 ـ كريمسكي : تاريخ الأدب العربي الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين، موسكو، 1971.

14 ـ ليفين : تطور الاتجاهات الأساسية للفكر الاجتماعي والسياسي في سوريا ومصر، موسكو، 1971.

15 ـ نيكيفورفا : أدب النهضة الاجتماعية، موسكو، 1968.

16 ـ التاريخ الحديث للبلاد العربية (1917 ـ 1966)، موسكو، 1968

17 ـ بانتوتشك : الأدب التونسي، مقالات قصيرة، موسكو، 1969

18 ـ بروجوجينا : أدب المغرب وتونس، موسكو، 1968.

19 ـ بروجوجينا : الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في المغرب وتونس ـ رسالة علمية ـ موسكو، 1967.

20 — أمين سعيد : ثورة العرب في القرن العشرين، موسكو، 1964.
21 — ستيبانوف : أغاني الحياة — مجلة « الأدب الأجنبي »، 1958، عدد 11.
22 — شوستر : ملاحظات على أدب تونس مجلة « نجمة الشرق » 1958، عدد 10.

ثانيا : في اللغة العربية .

1 — محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس، القاهرة، 1956.
2 — العامري: تاريخ الأدب العربي في تونس — مجلة « الفكر »، 1966، عدد 4.
3 — أبو القاسم محمد بدري : الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني، القاهرة، 1959.
4 — ناجية ثامر : أردنا الحياة، تونس.
5 — ناجية ثامر ؛: عدالة السماء، تونس، 1956.
6 — محمد الجابري : وضع القصيدة في الشعر التونسي المعاصر، مجلة « الفكر »، 1967، عدد 5.
7 — محمد الحليوي : الشعر التونسي الحديث، مجلة « الفكر » 1964، عدد 7.
8 — محمد الحليوي : مع الشابي، تونس، 1955.

9 ـ رشاد الحمزاوي : بودودة مات ، تونس، 1962.

10 ـ الصادق الرزقي : الأغاني التونسية، تونس، 1967.

11 ـ أبو القاسم الشابي : أغاني الحياة، تونس، 1966.

12 ـ عمر بلخيرية : التأثير في الأدب، مجلة « الفكر »، 1967، عدد 2.

13 ـ محمد فريد غازي : قضية القصة، مجلة « الفكر »، 1959، عدد 4.

14 ـ عمر فروخ : شاعران معاصران، ابراهيم طوقان، وأبو القاسم الشابي، بيروت، 1954.

15 ـ عمر فروخ : الشابي شاعر الحب والحياة، بيروت، 1960.

16 ـ نعمات فؤاد : شعب وشاعر، أبو القاسم الشابي، القاهرة، 1958.

17 ـ أبو القاسم كرو : آثار الشابي، وصداه في الشرق، بيروت، 1961.

18 ـ أبو القاسم كرو : كفاح الشابي، تونس، 1957.

19 ـ أبو القاسم كرو : خير الدين التونسي، 1958.

20 ـ أبو القاسم كرو : الطاهر الحداد، تونس، 1957.

21 ـ عثمان الكعاك : مصادر أبي القاسم الشابي، مجلة « الفكر »، 1957، عدد 1.

22 ــ أحمد اللغماني : قلب على شفة، تونس، 1966.

23 ــ محمد المرزوقي : بين زوجتين، تونس، 1957.

24 ــ محمد المرزوقي : الأدب الشعبي في تونس، 1967.

25 ــ محمد المرزوقي : جزاء الخائنة، تونس، 1956.

26 ــ محمد المرزوقي : في سبيل الحرية، تونس، 1956.

27 ــ محمد المرزوقي : عرقوب الخير، تونس، 1956.

28 ــ محمود المسعدي : السد، تونس، 1955.

29 ــ محمد العروسي المطوي : التوت المر، تونس، 1967.

30 ــ مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، تونس، 1967.

31 ــ فوزي عبد القادر الميلادي : جولة مع أدباء شمال أفريقيا، القاهرة، 1965.

32 ــ حسن نصر : ليالي المطر، تونس، 1968.

ملاحظـــات وتعليقـــات

بقلم الاستاذ ابو القاسم محمد كرو

(1) يشير الكاتب الى ما قامت به المدرسة الحربيـة ـ التى اسسها المشيـر احمـد باشا باى (1837 ـ 1855) ـ من ترجمة كتب اوروبية معظمها فى الفنـون العسكرية .

(2) طبع بمطبعـة الرائد التونسى عـام 1868 .

(3) ما يذكره الكاتب عن « توسيع مجال العلوم الطبيعية » غير واضح ، فالمعلـوم ان الاصلاح تناول تنظيم الادارة وسلـك المدرسين ومناهج التعليم ومراحلـه بوجه عام أى ضبطه بنظام قانـونى ، ولم يحدث الاصلاح تغييـرا عميقـا فى اسلوب التعليم ومحتـواه ، وذلك بسبب العقليـه السائدة على معظم شيـوخ الزيتونـة .

(4) المعـروف ان خير الديـن كان يعمل جاهـدا على مقاومـة التدخل الاوروبى ـ وخاصة الفرنسى ـ فى شؤون البـلاد ، لذلك حـرص على دعم روابط تـونس السياسية بالخلافة العثمانية .

(5) لعلـه يعنى التسلط المباشر على ميزانية الدولـة وعلى الاقتصاد التـونسى عـن طريق اللجنة الماليـة المعروفة باسـم « الكومسيـون » بدعـوى حماية امـوال المقرضين الفرنسيين والاجانب .

(6) يشير الى الامتيازات التى منحها السلطان العثمانى للدول الاوروبية المعروفة ، باسم « الامتيازات القنصلية » .

(7) اهمل الكاتب ثورة علي بن غذاهم ، وهى ثورة الكادحين والفلاحين من سكـان

الريف والباديــة . وما يعنيه بــ « تجــار الاراضى » غير واضح ، ولعله يعنى « ملاك الاراضى » من الطبقة البرجوازية « البلدية » أى أعيان العاصمة .

(8) لعله يعنى حركة الشيخ محمد السنــوسى ؟ أما البشير صفــر فلم يكن مــن خريجى الزيتونة ولا من أساتذتها ، ولكنه كان أستاذا للتاريخ والجغرافيا فى المدرسة الخلدونية .

(9) الثابت تاريخيا ان محمد عبــده قد زار تونس مرتيــن :

أ ـ الاولى مدة شهر تقريبا من 6 ـ 12 ـ 1884 حتى يوم 4 ـ 1 ـ 1885

ب ـ الثانية من 9 ـ الى ـ 1903/9/24 . فكيف تسنى للكاتب ان يؤكــد ان عبده أقام بتونس « بضع سنوات » ؟ !

(انظر عن رحلتى عبده الى تونس ، حوليات الجامعة التونسية ، الحلقة الثالثــة سنــة 1966) .

هذا .. وان مقاومة الاحتلال لم تكن نتيجة زيارة محمد عبده فقد قــاوم الشعب الاحتلال بالسلاح فى معظم المدن والجهات . كما عارضه كثير من رجال الدوله .

(10) الصواب ان يقال : « الجمعية الخلدونيــة » اذ ان هذا هو اسمها الرسمى . كما ان التعليم بهــا لم يتجاوز المستوى الثانــوى . وكــانت لهــا مكتبــة تلقى فى قاعتها المحاضرات المتعددة الاغراض .

(11) فى هــذا العــرض لبرنــامج تعليم الخلدونيــة خلط بين ما كان بهــا وما كــان بالزيتونة .. فقد تــأسس التعليم الخلدونى كنظام مكمل للتعليم الزيتــونى ، لذا تركز البرنامج فيــه على ثلاث محــاور (1) العلــوم الصحيحة (2) العلــوم الادبيه (3) اللغات الاجنبية .

(12) شهادة « البكالوريوس » غير معروفة فى نظــام التعليم الفرنسى الذى يقلــده التونسيون ، فهى شهادة سائدة فى التعليم الانكليزى أو الامريكى . وكــانت الخلدونية تقتصر على منح خريجها « ديبلومــا » يعادل الباكالوريا الفرنسيــة ،

غير ان السلطة الفرنسية لم تعترف بهذه التسوية ، لهذا كان بعض طلبة الخلدونية يشاركون « بصفة حرة » فى امتحانات الشهادة الفرنسية .

(13) لعله يعنى مشروع « مقاومة الامية ونشر التعليم بين العروش » — أى القبائل — الذى كونه التونسيون لنشر التعليم الابتدائى بين سكان الريف ، وبذلك قاوم سياسة الاستعمار التجهيلية للسكان .

(14) صدر أول عدد من الرائد التونسى عام 1861 وهذه الجريدة لم تنقطع عن الصدور حتى الان .. وهى تسمى اليوم (الرائد الرسمى) وحبذا ان يعاد لها اسمها العريق « الرائد التونسي » اذ انها احدى رائدات الصحافة العربية فى العالم .

(15) اسس جريدة الحاضرة على بوشوشة عام 1888 . والزهرة عبد الرحمن الصنادلى 1889 ، ومجلة السعادة العظمى (وهى اول مجلة بتونس) اسسها محمد الخضر حسين 1904 . والحقيقة لصاحبها عثمان بن عمر عام 1907 والرشدية اسسها حسين بن عثمان عام 1904 . والتقدم لصاحبها البشير الفورتى عام 1908 . ومجلة خير الدين لصاحبها محمد الجعائبى 1906 ....

(16) بالعكس فان ما تم من ترجمة كان لغرض معين ومحدود .. فالمعروف تاريخيا ان أساتذة المدرسة الحربية وطلبتها قد قاموا بترجمة كتب عديدة من اللغات الفرنسية والتركية والايطالية ، وكان معظمها فى العلوم العسكرية ، وقليل جدا كان فى التاريخ وغيره مما له صلة بالبرنامج المقرر . لكن هناك محاولات اخرى بذلها تونسيون فى الصحافة وفى كتيبات مستقلة خلال القرن الماضى ، كما فعل سليمان الجرائرى .. غير ان هذه المجهودات الفردية لم تشكل حركة ذات أثر يذكر فى النهضة او فى الثقافة .

(17) غاب عن الكاتب اختلاف الظروف والبيئة بين هذه البلدان .. ففى لبنان كان عامل الطائفية محركا المسيحيين العرب ، وفى مصر كان التشابه واضحا بين حركة محمد على وحركة احمد باشا باى ،رغم اختلاف حجم العمل والسكان

فى البلدين .. على ان بعض العلماء التونسيين ساهموا بشكل بارز وهام فى حركة الترجمة والتاليف والطباعة فى مصر مثل محمد بن عمر التونسى ، وكل ذلك خلال النصف الاول من القرن الماضى . أما النصف الثانى منه فان نهضة مصر الصحفية والادبية وكذلك فى مجال الترجمة قد قام معظمها على كاهل المهاجرين اللبنانيين والسوريين .

(18) هنا يعود الكاتب لبيان دور مدرسة باردو فى الاربعينات من القرن الماضى ، وهو بذلك ينتقل بين موضوعاته بدون ترتيب تاريخى ، علما بان مدرسة باردو قد اسسها احمد باى عام 1840 .

(19) هذا طبيعى ، فهم الذين تعلموا لغاته وعاشوا فى معاهده . وبالنسبة لتونس كان خريجو المدرسة الحربية اولا ، والمدرسة الصادقية ثانيا هم طلائع من التاثرات ، وهم الذين نقلوا لمواطنيهم ـ بكل الوسائل ـ آثار اوروبا وعلومها .

(20) الرحلات التونسية فى القرن الماضى كثيره ، وهى بدورها من أهم عوامل التاثير والتاثر بالحضارة الاوروبية . وحتى كتاب خير الدين فى قسمه الثانى يعتبر من نوع الرحلات . ولمحمد السنوسى كتاب عن باريس ومعرضها الدولى لعام 1889 سماه « الاستطلاعات البارسية » قارن فيه « بين الحالة الراهنة فى باريس وبين حضارة الاسلام »

(21) لم نطلع على محاولات هذا الشعر الحر ، وخاصة فى الشكل ـ كما يقول الكاتب ـ ولعله يريد ان يقول ان شعراء هذه الفترة قد تحرروا من الموضوعات القديمة وعالجوا موضوعات اجتماعية جديدة ، وهو المضمون الجديد الذى تحدث عنه الكاتب فى الفقرة الموالية .

(22) لم نفهم كيف أثرت الثورة فى روسيا على تجديد الادب فى تونس ؟ ! وكذلك انتشار احداثها فى طول البلاد وعرضها ، والحال ان الاذاعة لم تكن قد ظهرت بعد فى تونس ، والشعب يومئذ لا يعرف معظمه القراءة والكتابة .. فهل قصد الكاتب بهذا الحشو استغفال القراء فى بلاده ؟ ! ربما ! !

(23) هى جمعيـة الشبان المسلمين التى كان الشابى من مؤسسيها (انظـر : ابـو القاسم الشابى حياته وادبه لزين العابدين السنوسى)

(24) القى الشابى محاضرتـه عن « الخيـال الشعرى عند العـرب » فى قاعة المكتبـة الخلدونية ، ولكن باشراف النادى الادبى التابع لجمعية قدماء الصادقية ، وهـو من مؤسسيـه ، وذلك يـوم 30 شعبان 1347 = 1929/2/10 وطبعت فى نفس العام بتقديم ونشر صديقه ز . السنوسى .

(25) فى طبعة الديوان الثانية ، تونس 1966 ترتيب للابيات يختلف عما ورد هنا

(26) ان تجديد الشابى فى شكل القصيـدة لا يصل الى هـذه الدرجة العاليـة التى يشير اليها الكـاتب من القضاء على شكل القصيدة التقليدى قضـاء تامـا ؟ ! فمعظم قصائد الشابى على الشكل التقليدى ، وان كان نجح نجاحا عظيمـا فى جعلها تحمل شحنة هائلة من الموسيقى والنغم الآسر ، وفى هذا سر سيطـرة شعره على النفـوس . وقد تفطـن الكاتب الى هـذه الظاهرة فتحدث عنهـا فى الفقرة الموالية اثناء تحليله لخصائص شعر الشابى

(27) نستغرب ان يحشر الكاتب « الرصافى وبحر العلوم » بين الشعراء المتاثريـن بالشابى ؟ ! ولا يحتاج نفى ذلك الى اى دليل ، فهو من الواضحات لدى قـراء الشعر العربى فضلا عن دارسيه ونقاده ومؤرخيه ، عربا واجانب .

(28) هو محمد محى الديـن القليبى من رجال الحـزب الدستورى القديـم ، توفى بدمشق عام 1954 . وكان من أشد المعارضين لدعاة التجديد ، وخاصة منهم الشابى والطاهر الحداد ، والكاتب يشير هنا الى راى القليبى فى الشعر الذى قدم به محاضرة الشاعر خزنه دار عن الشعر ، والمطبوعة بتونس عام 1919 .

(29 و 30) يذكر الكـاتب عدة معلومات غير مسلمـة ، ومعظمها مخـالف للحقائـق التاريخية والمسلمات الادبية :

اولا ـ هو ينتقـل للحديث عن الثعالبى فى سيـاق كلامـه عن الشعـر بعـد الشابى ، مع العلم ان الثعالبى ليس شاعـرا ، وليس من جيل الادباء الذين ظهـروا

بعد الشابى ، فالكاتب نفسه يذكر ولادة الثعالبى سنة 1874 بينما كانت ولادة الشابى عام 1909 .

ثانيا ـ الثعالبى من رجال السياسة والصحافة الوطنية والاصلاحية منذ العقد الاخير من القرن الماضى وخاصة مع حركة علي باش حانبة فى العقد الاول من هذا القرن ، أى قبل ان يولد الشابى .

ثالثا ـ الكاتب يخلط بين النثر الفنى وبين نثر الكتابة السياسية والتاريخية اللتين تخصص فيهما الثعالبى منذ بدأ يكتب فى الصحف التونسية قبل ميلاد الشابى .

رابعا ـ الكتب التي ذكرها الكاتب للثعالبى بينها خلط كبير ، وفى معلوماته عنها اخطاء ينبغى تصويبها :

1 ـ كتاب « تونس الشهيدة » كتب ونشر بالفرنسية ، ومثله كتاب « الروح الحرة فى القرآن » الذى طبع بتونس فى مطلع هذا القرن ، فاعتبارهما ضمن النثر الادبى بتونس بعد الشابى أو حتى قبله أمر غير مقبول .

2 ـ الكتاب الذى يسميه الكاتب « سيدنا محمد » ليس هذا اسمه بل عنوانه « معجز محمد » وقد طبع بعد وفاة الشابى ، وفيه نظرة جديدة لحياة الرسول ورسالته ، كما يدعو فيه المؤلف الى احياء وتجديد رسالة الاسلام واشعار المسلمين بانهم كانوا يوما قمة العالم واصحاب حضارة سائدة ، وانهم لذلك يستطيعون ان ينهضوا من جديد .

خامسا ـ ذكر الكاتب فى نهاية الفقرة 29 ان الثعالبى طالب فى كتابه تونس الشهيدة باعادة دستور 1881 والصواب 1861 ، ولعله خطأ مطبعى فى الاصل ، والحزب الدستورى التونسى ، بشقيه القديم ـ الذى كان يتزعمه الثعالبى ـ والجديد ـ الذى كان يتزعمه بورقيبة منذ تأسيسه عام 1934 ـ لم يكن يطالب باعادة دستور 1861 بل بنظام ديمقراطى دستورى حر فى دولة مستقلة .

هذا .. وقد قام الاستاذ سامى الجندى بترجمة كتاب « تونس الشهيدة الى العربية » ونشرته (دار القدس) ببيروت فى 221 ص ط 1 سنة 1975 .

سادسا ـ يلمح الكاتب الى ان الثعالبي يصدر عن ثقافته الزيتونية فيما يكتبه مستدلا على ذلك بعنوان كتابيه (القرآن) و (محمد) . ويظهر جليا ان الكاتب لم يعرف من الكتابين سوى الاسم ، ولو انه اطلع عليهما فعلا ، لغير رأيه تماما . فالثعالبي كان دائما ، وخاصة في هذين الكتابين ، متحررا في تفكيره وفي فهمه للقرآن وللاسلام بوجه عام . وقد لاقى اضطهادا ومحاربة من رجال الدين والسلفيين الزيتونيين ، كما حوكم ودخل السجن من أجل أفكاره الدينية .

(31) تبدو هنا دقة تحليل الكاتب لكتاب « تونس الشهيدة » مما يدل على انه اطلع عليه ، بعكس تحليله وحديثه عن الكتابين الآخرين .

(32) ذكر الكاتب ارقام حياة الدوعاجي فاصلحناها واعتبرنا اخطاءها مطبعية .

(33) يبدو ان الكاتب يخلط بين مختلف أنواع الانتاج الادبي للدوعاجي ، فقد كان انتاجه الشعري والاذاعي بمثل هذا العدد (خمسمائة) لا سيما الازجال والمسرحيات القصيرة ، وليس هذا العدد (500) كله قصائد واغاني للاطفال ـ كما يدعي الكاتب ـ

(34) لا ندري كيف توصل الكاتب الى ان الدوعاجي رفض شروط « الناشرين المهينة (كذا) والحقوق الزهيدة حتى بقيت آثاره مخطوطة .. فالمعروف ان أحدا لم يعرض على الدوعاجي نشر مؤلفاته ، وذلك لسبب بسيط هو أنه لم يكن بتونس في عهد الدوعاجي اي ناشر محترف ! !

(35) تاريخ نشر الكتاب الذي يذكره الكاتب تاريخ صحيح ، ولكنه لا يمثل تاريخ نشر الكتاب لاول مرة .. فقد سبق للمؤلف ان نشره تباعا في مجلة « العالم الادبي » الصادرة بتونس ابتداء من العدد 13 سنة 4 بتاريخ 1935/9/2 ثم أعادت نشره مجلة « المباحث » التونسية في الاربعينات ، وكان لي شخصيا شرف جمعه من المجلتين ونشره بواسطة الشركة القومية للنشر والتوزيع سنة 1962 حين كنت مستشارها الثقافي .

(36) نشرت في هذا التاريخ تباعا بمجلة المباحث التونسية ثم طبعت مستقلة بكتاب عام 1974 .

(37) يمكن ، ان لم يكن مؤكدا ، اعتبار « مولد النسيان » بمثابة الترجمة الذاتيـة لفترة اليمة جدا فى حياة المؤلف ، فهى تعبر عن تجربة واقعية حادة ، ومعاناة ذاتية قاسية عرضها صاحبهـا بشكل ماسوى وفى اطـار من الرمـز الفلسفى العميـق .

(38) لطه حسين رأى مشابه فى هذه الظاهرة العامة فى أدب المسعدى (راجع مـا كتبه طه حسين عن السد فى مجلة الفكر س 2 ع 8 ونفس المقـال نشره فى كتابه « من أدبنا المعـاصر » ، وللمسعدى رد عليه فى نفس العدد من مجلـة الفكـر .

(39) المعروف ان الجائزة أسندت له عن قصته « برق الليل » سنة 1960 وتم نشر القصة فى العام الموالى 1961 . وليس كما ذكر الكاتب .

(40) لعل الكاتب يعنى تقديم المطوى للمجموعات القصصية التى نشرها نادى القصة .

(41) فى النص « دمـوع وعواصف » والصواب ما صححنـاه .

(42) اسم المجموعة الحقيقى « صومعة تحترق » ولعل التحريف حصل أثناء الترجمة الاولى للروسية والثانية للعربية .

(43) يعتبر هذا الكاتب منسلخا من ذاتيته التونسية ، فهو لم يحتمل ان يعيش فى حمى وطن تتولى ادارته حكومة عربية وطنية ! ! فاستقر بفرنسا مدعيا الكبت والاضطهاد ... فى حين ان روابطه الدينية المتعصبة والحفيـة وكذلك شعـوره بالانتماء اللغوى والثقـافى للفرنسيين ــ المستعمرين السابقين للبلاد ــ هـو الذى جعله يختار الاقامة معهم ! !

(44) من الغريب ان يعتبر الكاتب (البربـر) أقلية مثل اليهود الذين نزحـوا الى تونس وكامل الشمال الافريقى فرارا من الاضطهاد الاوروبى . ونسى الكاتب ان البربر هم سكان البلاد القدماء ، وانهم يمثلون الكثرة الغالبة فى أصـول الشعب الافريقى على كامل شمال القارة ، ولئن تعرب معظمهم لغة وكلهم دينا وحضارة اسلامية ، فان ذلك لم يجعل منهم أقلية باى معنى كان .

(45) بعد عام 1956 ـ أى بعد اعلان استقلال تونس ـ غير الكاتب نظرته وموقفه فالتحق باصهاره مستوطنا فى بلادهم الاصلية

(46) ان ما أسنده الكاتب من دور الى رواية ممى هذه ، وخاصة فى اثارة الإمزجة الثورية ، يبدو لنا بعيدا جدا عن الواقع ، لا فى تونس فحسب بل فى بلدان المغرب جميعا .

(47) هل يعتبر الكاتب مؤلفات الطائفى المنسلخ (ممى) ، وكذلك الذين كتبوا مثله بلغة غير لغة الشعب ، من النثر التونسي ؟ ! ان سياق الكاتب فى النص يوحى بذلك ، وهو ما نراه بعيدا جدا عن النظرة الصحيحة والواقعية . كما ان ربط تطور النثر بالازمات الاستعمارية والاقتصادية فى سياق حديثه عن ممى المنسلخ غير صحيح . فالكاتب الذى ينسلخ عن الشعب لغويا ثم جغرافيا ليس الا وجه آخر من وجوه الاستعمار القديم والحديث .

(48) لم افهم ما يعنيه الكاتب من هذه الفقرة بقوله « قيادة التعليم » فالذى وضع فى يد الحزب هو قيادة الشعب للتحرر من الاستعمار .

(تونس) ابو القاسم محمد كرو

البابُ الثّاني

الأدَب التونسيّ المعاصرْ من خلال مطبُوعَاتـه

الفصل الأول
مع الشابي

تمهيـــد

ان الاهتمام البادى والمستمر فى تونس بالشابى وأدبـه يوحى بأن أحدا لم يستطع على مدى ما يقرب من نصف قرن أن يسد الفراغ الذى خلفه الشابى .

كما يوحى من جانب آخر بان تونس التى وهبها الشابى تلـك الشهرة الكبيرة تريد أن ترد له الجميــل ، فقد اقترن اسم الشابـى باسم تونس ، حتى لا تكاد ندرى أيهما الذى عرف بصاحبه .

لقد غنى أبو القاسم الشابى أعذب وأعمق أغانى الحياة ، وأثرى الشعر العربى الحديث بدفقة من الوجدان الصافى الذى تميز به .

وانتشرت أصداء أغانيــه فى أرجاء الوطــن العربى كلـه نـداء مجلجلا بأنغام الحريــة والاصرار على الحياة فى أحضان الطبيعــة التى تمنح القوة والرفاهية والخلود .

وظل الوطن العــربى ، وسيظل حفيا بأشعار الشابى المخمليــة التى تبدى من الرقــة والنعومة واللمعان بقــدر ما تنطــوى على قــوة الدوى ، ومتانة النسج ، وطرافة العبارة ، والايحــاء المجلجل بقــوة الارادة والدعوة الى الحرية ، حتى كأنه لا يستخدم الكلمات ، ولكــن الكلمات نفسها تنمو على شبابته ، وتترعرع على سنان قلمه ، ويبدو من ألفتها مع جاراتها وكأنها خلية حية تنبض جزئياتها بحرارة الدماء ولا تقبل الانقسام .

شعـر كأنه تراتيل الملائكـة فى الملأ الاعلى تتـردد فى أسمـاع الخالدين ، ومع أن الشابى لم تكن له فلسفة محددة المعـالم ، الا أن شعره كان صورة للقلق والحيرة ، والتردد ، فهو مشبع برفض الحياة والاقبال عليها ، وقد كان هذا ولا شك سمـة من سمات الشبـاب العربى الذى كان يتململ يومئـذ فى قيود الرجعيـة والاستعمـار . يرفض القيود ، ويتمرد على الاغلال ، ولكن بعزم واهن وساعد كليل، تحيط به حكومات مستكينة للدخيل ، ومجتمع غارق فى الخرافات .

ولقد كان يكفى أبا القاسم الشابى فى ذلك الحين أن يرفع علم الثورة ، ويصر على ارادة الحياة فى جيل لم يعرف معنى الثورة .

هذا ما عرف عن الشابى لدى جماهير قراء العربيـة فى المشرق والمغرب ، منذ تـردد اسم الشابى على أديـم الصحف السيـارة فى الوطن العربى الاكبر .

اما ما لم يعرفه الا جمهور الباحثين فهو ان الشابى باحث وناقد ثورى ، تبدو انتفاضته فى البحث الذى قدمه عن « الخيال الشعرى عند العـرب » انتفاضة صغيرة ، نعـم ، ولكنهـا مليئـة بالطاقـات المتفجرة .

وأما ما لم يعرفه الاقل من القليل فهو أنه كاتب رقيق يصطنـع الاسلوب الدرامى فى مقطعاته ولوحاتـه المنتزعة من الحيـاة ، وحتى فى رسائله ويومياته الانيقـة المفعمة بالحيويـة والصدق والصراحـة والدقـة .

وككل عملاق فى عصره أخمل الشابى كثيرين من شعراء عصره فى تونس ، فظهروا بجانبه خافتى الاصوات .

ولم تكـن تلك جنايـة الشابى ، بـل كـانت جنايـة التخلف والاستعمار الذى فصم عرى الوطن العربى وفتت وحدته ، وجعل منه شرقا وغربا .

لكن القومية العربية العريقة كانت وما زالت تتحدى الفناء ، وتتحدى عوامل التفتيت ، فلو لم يبرز اسم الشابى فى المشرق ، ويتردد بجانب الصحبة المتواكبة حول مدرسة الديوان وجماعة أبولو فى مصر لما عرف كشاعر طليعى تردد اسمه منذ ذلك اليوم ، وسيظل يتردد فى وعى الاجيال كلما أتيح لها أن تعرف المزيد من جوانب عبقريته الاصيلة .

ولقد كان ذيوع اسم الشابى وأشعاره بين قراء العالم العربى حافزا للتطلع الى معرفة الكثير عن تونس وأدبائها وشعرائها ومفكريها ، وبالتالى للتعاطف مع قضاياها الاجتماعية والسياسية والثقافية ، فلقد جاء وقت كانت تعرف فيه تونس بأنها بلد الشابى فحسب .

وبقدر ما كان لتونس من صلات ببلدان الشرق ، فانها لم تبرز كبلد مفعم بالجمال والنضال فى سبيل الحرية بقدر ما برزت فى شعر الشابى .

والشىء الجدير بالحمد أن جيل الادباء والنقاد التونسيين المعاصرين قد آمن بعبقرية الشابى ، وبحقه عليهم فى أن يبشروا برسالته فى العالم العربى كله ، وأن يصنعوا من حياته وشعره جسر صداقة ، وملتقى حب وتعارف وتعاون بين المشرق والمغرب فى تبادل مثمر لما بين الادب التونسى والآداب العربية المعاصرة من آراء وأفكار وايجاد الوسيلة للتفاعل بين الجناحين .

وعلى الرغم مما أحس به الشابى فى حياته من مرارة الاهمال ، فان نصيبه من التقدير كان كبيرا ، اذ وجد فى ابان انطلاقه الفنى من يأخذ بيده ، حينما تلقفه الشاعر الناقد الكبير الدكتور أحمد زكى أبو شادى فقدمه الى العالم العربى على صفحات مجلة أبولو ، فقدم فيه الوجه المضىء لتونس الخضراء .

وأعتقد أن حظه اليوم من التقدير أكبر ، بما يقدم له شباب الادباء في تونس من عناية بحياته وتراثه الذى يجمع وينشر الان فى أوسع نطاق ، بعناية الهيئات والافراد ، وفى مقدمتهم الاستاذ أبو القاسم كرو ، الذى كان أول من عرف بالشابى تعريفا علميا فى كتابيه « الشابى حياته وشعره » ، و « كفاح الشابى » ، وما زال يجمع تراثه ويعمل على تحقيقه ونشره ، ويجمع حوله الكتاب والنقاد ليؤرخوا للشابى ، ويجمعوا انتاجه ويحققوا تراثه ، حتى أنشأ مشروعا خاصا بذلك ، وهو اصدار سلسلة من الكتب عن حياة الشابى وانتاجه في مختلف أشكاله وألوانه باسم « مكتبة الشابى »

وبفضل هذه الجهود الفردية والجماعية صدرت طبعة جديدة من ديوان « أغانى الحياة » للشابى ، وصدرت رسائل الشابى ، ومذكرات الشابى ، ودراسات عن الشابى ، وما زال فى الطريق الكثير والكثير عن الشابى ، للكشف عن جوانب جديدة من حياته ، وعن ألوان جديدة من انتاجه ، وفيه الشعر ، والبحث ، والمقال ، والقصة ، والمسرحية ، والخواطر ، وجميع فنون الادب وأشكاله ، مما دبجت براعة الشابى الذى لم يعش فى هذه الحياة الا عمر الورد ، والذى أنتج فى ربع قرن ـ هو كل حياته ـ ما يتجاوز انتاج العباقرة فى عديد من القرون في امتداد أثره وعمقه واتساعه .

وحسبنا هنا أن نحيي ذكرى الشابى شاعر الشعب والحرية والطبيعة وارادة الحياة والخلود ، وان نعيش فى تراثه الانسانى المجيد .

الشابي ... حياته وشعره
تأليف : أبو القـاسم محمد كـرو

لا يمـلك مؤرخ الأدب المعاصر أن يغفـل عن سجـل الشعراء الخالديـن شخصيـة أبي القاسم الشـابي وتراثـه.

كمـا لا يملك وهو يكتب عن الشابي أن يستغني عن المصدر الغني والأصيـل في التعريف الكامـل بالشـابي وهو كتاب الكاتب الناقد التونسي أبي القاسم محمـد كرو.

والكتاب الـذي نعرضه اليـوم هو أول كتاب عام مستفيض كتب عن الشابي، وهو كذلك أول إنتـاج لأبي القاسم كرو (1) ولكنـه بحث علمي مكتمل الجوانب يدل على قدم راسخـة فـي البحـث، وليس تجربـة كاتب مبتـدىء.

ومن المقـدمـة يتبين لنا منهـج الكتاب وهـدفـه، كما يستبيـن الجهـد الـذي بـذلـه المـؤلف ليجيء كتابـه مرجعـا يطمئن إليــه الباحثون والدارسـون في أدب الشابي، فقد أراد أن يعــرف الشابي الى القراء العـرب في أقطار الشرق باعتباره علما مــن أعـلام النهضـة في تـونـس، وشاعرا من زعمـاء المجددين في الشعـر العـربي المعـاصر، كمـا أراد أن يعرض علـى الناس آلامـه وعذابه وشقاه وأساه مجموعة في أول كتاب عن حياة الشابي وأدبه.

---

(1) طبع لاول مـرة فى بيروت عام 1952 والكاتب يتحدث عن الطبعـة .

ولقد استقى الحقائق من مصادرها الاصلية ، واستخلص المعلومات من البيئة التي عاش فيها الشاعر ، ومن كل المنابع ذات الصلات الوثقى بالشاعر وبحياته ، واتصل بمعاصريه ومخالطيه، وكان يبحث في كل كبيرة وصغيرة، ويسأل عن الأشياء القليلة الأهمية والبالغة القيمة، ما دام في معرفتها شيء من العلم والفهم لنواح جديدة من حياة الشابي وأطوار شاعريته.

والحق أن الشابي ظاهرة عربية في الأدب المعاصر ، نضج في وقت مبكر من حياته واختطفه الموت في وقت مبكر من الفجر كذلك، وعاش حياة قصيرة ولكنها عميقة كأبطال الأساطير.

وحفاوة المؤلف به تجعلنا نعايشه ونتعاطف معه ونحنو على آلامه.

والكتاب يضم قسمين : القسم الأول وهو الدراسة، والقسم الثاني المختارات وهذه المختارات يصنفها المؤلف صنفين : شعر الشابي قبل العشرين، وشعره بعد العشرين ، اذ من المعروف أن الشابي قد ولد عام 1909 ، وفارق الحياة في عام 1934 ، ويرجع تاريخ بعض قصائده الى عام 1923، أي أنه مارس القريض وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمر أحد عشر عاما يفيض عنه الشعر العبقري كما يفيض الماء العذب عن المنابع الطاهرة وعطاؤه يزيد ويصفو حتى آخر أنفاسه.

والقسم المخصص للدراسة يجري في فصول قصار تشكل لمحات عن : — الحياة الثقافية التي تنبيء بأن القطر التونسي عامر بالحركات الأدبية والثقافية والشخصيات المفكرة في القديم، ومن أبرز مفكريها ابن خلدون وابن منظور، وصاحب زهر الآداب، وفيها الجامعة الزيتونية، وجامعة دار الحكمة بالقيروان.

— أما النهضة الحاضرة فترجع جذورها الى الوزير خير الدين الذي وضع الأسس المتينة لنهضة عربية معاصرة بانشاء المدرسة الصادقية وادخال اللغات الأجنبية، وحتى بعد أن طمس الاستعمار معالمها وارتد بالبلاد الى الوراء، صمدت الطلائع الواعية للكفاح حتى استطاعت أن تسير بتونس في طريق النور والحرية، وكان الشابي أحد المشاعل، وطليعة المناضلين في العقد الثالث وبداية الرابع من هذا القرن حتى تقهقرت الرجعية وبدأت حركة التجديد.

— وعن حياة الشاعر يتحدث عن زمان ومكان ميلاده في الشابية من ضواحي توزر في اقليم الجريد جنوبي تونس، الغني بمفاتن الطبيعة، وكيف بدأ تعليمه في الكتاب فحفظ القرآن في التاسعة وأخذ والده — وهو خريج الأزهر — يلقنه مباديء العلوم، وسمح له بقراءة كتب الدين والتصوف والفلسفة، وفي الثانية عشرة يلتحق بالزيتونة في تونس عام 1921، فيتخرج منها عام 1928، وكان انتقاله الى العاصمة نقطة تحول في حياته لأنه وجد فيها الانطلاق والتحرر والنشاط الأدبي، وفيها

قرأ الكثير من انتاج الأدب المهجري الذي وجهه الى نقد الحياة والثورة على الأوضاع ، كما وجهه الى الصوفية، والأسلوب الساخر، الى جانب قراءته في أمهات الأدب العربي القديم، وفي الشعر المعاصر، وفيما ترجم من روائع الأدب الأروبي.

ثم التحق بكلية الحقوق التونسية وتخرج منها عام 1930 ، وكان في كل هذه المراحل يشارك في الحياة الأدبية مشاركة جادة، ويتزعم الاتجاه الى اصلاح التعليم ، وتأسيس الجمعيات مثل " جمعية الشبان المسلمين " و " النادي الأدبي ".

وقد سبب له موت والده صدمة كبيرة غيرت الكثير من حياته، وكان بداية متاعبه ومسؤولياته، مما جلب عليه الآلام وأمراض القلب، حتى انتهت حياته نهاية مؤلمة.

– وفي البيئة الاجتماعية رأى الشابي من حوله مجتمعا مريض الجسد والروح مستسلما للاستعمار والرجعية والتعاسة والبؤس، وأعلن آراءه بجرأة وحماسة في شعره وفي نثره ، وأخذ يستنهض همم شعبه، ويحفزه للنضال، ويضم جوانحه على الألم والمرارة وهو يحطم الحواجز والسدود أمام مجتمع لينطلق ويحلق.

أما عن حياة الشاعر الخاصة فقد تزوج وترك الحياة ومن خلفه طفلان ، ويرجح كتاب سيرته أنه لم يكن موفقا في حياته الزوجية لأن زواجه المبكر كان ارضاء لوالده من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه لم يجد في زوجته الصورة الشاعرية التي

رسمها في شعره للمرأة، ولهذا اتجه بحبه الى امرأة خيالية (1).

وعن مؤلفات الشابي يحدثنا المؤلف عن ديوانه " أغاني الحياة " وعن كتاب " الخيال الشعري عند العرب " وعن رسائله الأدبية وعن يومياته وقصصه ورواياته النثرية والشعرية، ومنها رواية في المقبرة، وصفحات دامية ، وجميل بثينة، ومسرحية السكير ، ومن محاضراته ومقالاته، ومعظمها مخطوط لم ينشر.

واذا انتقلنا مع المؤلف الى القسم الثاني من الكتاب، وهو المختارات التي نشرها من شعر الشابي، والتي كانت أكبر مجموعة من شعره تنشر قبل صدور ديوانه كاملا، فقد قسمها المؤلف الى مرحلتين : مرحلة ما قبل العشرين، ومرحلة ما بعد العشرين.

ففي المرحلة الأولى يختار عشرين قصيدة ومقطوعة، تمثل العناوين : شعري — تونس الجميلة — زئير العاصفة — الحرب — لعلعة الحق — في الظلام — الزنبقة الذابلة — الدموع — اغنية الأحزان — نظرة في الحياة — مأتم القلب — الأمل والقنوط — شكوى اليتيم — أيها الليل — الملل الأليم — أيها الحب — حيرة — جدول الحب — أنشودة الرعد — يا شعر.

أما ما بعد العشرين فقد اختار منها ثلاثين قصيدة ومقطوعة هي :

---

(1) من راى الحليوى ان الشابى يتغزل فى مثل اعلى للمراة ، وليس فى امراة معينة ، وراى مؤلف كتاب الشابى يختلف عنه تماما .

مناجاة — الايمان بالحياة — الجمال المنشود — يابن أمي — الى طغاة العالم — ارادة الحياة — صلوات في هيكل الحب — الساحرة — ألحاني السكرى — تحت الغصون — قلب الشاعر — الأبد الصغير — قال قلبي للاله — زوبعة في الظلام — قلب الأم أنا أبكيك للحب — الجنة الضائعة — أغاني التائه — في ظل وادي الموت — الأشواق التائهة — الرواية الغريبة — الناس — أمل الشاعر — النبي المجهول — أيتها الحالمة بين العواصف — في ظلال الغاب — فكرة فنان — من أغاني الرعاة — نشيد الجبار — الصباح الجديد.

ومع أن المؤلف لم يوضح لنا ملامح كلتا الفترتين، ولم يستند الى مرجع تاريخي يجعلنا نتأكد من أن هذه القصائد تنتمي الى هذه الفترة أو تلك (1).. الا أننا نلمح من مجرد عناوين القصائد أن إنتاج المرحلة الأولى يتسم بسمات الصبا، ويغرق في رومانتيكية المراهقة، على حين تتجه مختارات المرحلة الثانية الى المجتمع ، ومسائل الحياة، والنزعة الفلسفية، وعمق التحليل لعناصر الطبيعة.

وعلى كل حال فهي ثروة من شعر الشابي لم تتجمع من قبل في وعاء واحد حتى صدور هذا الكتاب.

---

(1) كان اعتماد المؤلف على الحدس والنقد الادبى وبعض المصادر التى نشرت تلك القصائد متفرقة ، وقد أشار الى الفهم الاول الكاتب نفسه ، كما ثبت ان تقسيم المؤلف كان صحيحا وسليما الا فى قصيدة واحدة ، وذلك بعد طبع ديوان الشابى وعليه تاريخ قصائده .

وينتهي الكتاب بايراد نماذج من نثر الشابي ، وقد يكون أول تعرف بالشابي الناثر، ومن بين هذه النماذج خواطر ، وبحوث قصيرة، ولوحات من الشعر المنثور، مثل : الشعر : ماذا يجب أن نفهم منه ؟ وما هو مقياسه الصحيح ؟ ويقظة الاحساس وأثرها في الفرد والجماعة، وصفحات دامية، وأغنية الألم.

ولكن هكذا ينتهي الكتاب كما ترى، دون تحليل لشعر الشابي، والتعريف بخصائصه الفكرية والفنية، وبيان اتجاهاته، ومواطن التجديد عند الشابي، وعناصر هذا التجديد.

ولكن حسب هذا الكتاب أنه كان بداية للتعريف بالشابي وإضاءة لجوانب شخصيته واستلالها من خضم الظلام والجهالة التي كادت تطمر حياة الشابي ، لولا أبو القاسم كرو وكتابه عن " الشابي ... حياته وشعره ".

كفـــاح الشـــابـــى

تـــأليف : أبـــو القاسم محمد كـــرو

في يقيني أن الاديب – كاتبا أو شاعرا – لا يحسن أداء فكرتـه ما لم يحسن تجربتهـا، ويتفاعل معها، ويحياها حياة عميقة نابضة بكل قواه المدركة واللامدركة، والا فهو منمق ألفاظ ليس غير.

وأديبنا الباحث أبو القاسم كرو ينبض قلبه نبضات صادقة محتدمة بكل معاني الحياة في كل ما يكتب، وتحس حرارة قلمه تقطر من دمه وأعصابه، وقد قرأت له أخيرا « كفاح الشابي » وأشهد لقد كانت حرارة إيمانه ببطولة الشابي تندمج بكيانه، فتجعله يحيا تجربة الشابي ونضاله الرائد، ويحكي حكايات قلبـه الثائر الجبـار.

وقد بلغ قمة التوتر وهو يتحدث عن حياة الشعب التونسي النبيل المعدن، الذي زرع في الشابي إيمانه بنفسه وبأمتـه، فوهبها شبابه وفنـه، وفني في أمواجها الهادرة المتأبيـة على قيود الشواطىء والخلجـان.

وكان يحلق الى قمم الشابي مخلفا عند السفوح أولئك الهازلين من الشعراء الذين كفروا بالشعب، وآمنوا بمصالحهم الضرورية أضعف الإيمـان، فأوصدوا قلوبهم دون الشعب الكادح، وانطووا على أنفسهم يغنونها أغنيات متخاذلة خرسـاء.

لو قلت إن كرو تعصب للشابي حتى رفع صاحبه فوق مستوى الشعراء – بله البشر جميعا – لما عدوت الصواب، ولا تثريب عليه إن هو فعل ، فشخصية الشابي الماردة في دنيا الأقزام، وحياته الخاطفة التي توشك أن تكون أسطورة وشعر الشابي المعدود في الروائع الإنسانية الخالدة، وآراء الشابي الرائدة من جيله المتخلف – كل ذلك جدير بأن يأسر مؤرخ أدب الشابي فيدعه يتعصب له على غير وعي منه، وتلك خصيصة لا بد أن يصطحبها كتاب التراجم الناجحون ولو ساعة يسجلون حياة أبطالهم، وهي ظاهرة نلمسها في كل ما يكتب كرو عن بطله الشابي الخالد.

ولكي يحدد كاتبنا الموفق مكانة الشابي في ركب الشعر عرض لنا قصة الشعر العربي منذ عرف، مبرزا عيوبه ومزاياه ومسجلا ما فيه من وثبات تطورية، ذاكرا لذوي الإحسان أياديهم حتى يبلغ الذروة فيجد الشابي هناك .

ولكي يحدد مكانة الشابي بين رواد الوطنية عرض للبيئة عرضا خفيفا تلمح في ظلاله كيف شق البطل طريقه بين صخور الجمود والرجعية والتزمت والاستعمار وكيف دوت آراءه الوطنية الإصلاحية الحرة رغم القماقم والسدود، ولم ينس أن يذكر الذين شدوا أزر الشابي أو سلكوا طريقه وإن تخلفوا عنه مراحل ومراحل، وراح يوازن بينه وبينهم لينتزع له كأس البطولة، ويتوج هامته بأكاليل النصر الساحق المؤزر.

وربما يكون صنيع الشاعر في شعبه غير ذي بال لو أنه كان شعبا متقدما أو كان الشاعر مسبوقا في هذا الدرب ، ولكن الشابي عاش

في عصر متخلف يقتات الرجعية ويرسف في تقاليد بالية ويشهر الدين المفترى عليه سلاحا في وجه كل مصلح، وذلك ما يبرز كفاح الشابي، ويجعله في مصاف رواد الوطنية الكبار، الذين يفتحون مغاليق العقلية البشرية، أو على الأقل يعالجون أقفالها، تارة بالترغيب وإبراز مفاتن الوطن، والدعوة الى تغذية الروح من ينابيعه، وتارة بالحث والدفع الحاني الرقيق، وأحيانا بالنذير الصائح المجلجل.

والظاهرة الجديرة بالالتفات أن الشعب ظهر بمعناه الكامل في شعر الشابي في وقت مبكر، وبطريقة تلقائية، يوم كان ينتفض انتفاضة الحرية في بلاد العروبة كلها، وأن الوطنية بمعناها الأمثل لازمت هذه الظاهرة في شعر الشابي، فلقد اندمج في آمال شعبه وآلامه لا ليخدعه ولا ليبكي معه، ولكن مبشرا بالحرية يدفع الشعب نحو فجرها دفعا قويا، وما زالت قولته تتردد على ألسنة صبيان العروبة وكهولها وشبابها وشيوخها في كل مناسبة واعية، حتى باتت أنشودة من أناشيد الثورة، تعتمل في كل صدر وتتغلل في كيان الأحرار، وتضيء حروفها كسطور الإنجيل في قلوب القديسيين.

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ولم تكن الوطنية عند الشابي خديعة يستتر خلف جدرانها، ليكسب مجدا رخيصا، أو يدعي بطولة زائفة، أو يتزعم فئة من الناس، بل

كان شعره ومثاليته على أتم ما يكون من التجاوب حتى جاء شعره في الوطنية أروع مثال للتضحية، وأكثر جرأة وحرارة، وأعمق ثورة مما نرى من وطنية مصنوعة في شعر كثير من أدعياء الوطنية.

وكثيرا ما تعني الوطنية الثائرة في شعر الكثيرين افتعال الثورة والظهور بمظاهر الهمجية التخريبية، ولكن الشابي كان مع الشعب دائما يمسح آلامه، ويحدد آماله، وينضج ثقافته ويغذي حاسته الاجتماعية، يريده شعبا نبيلا، متيقظ الفردية متماسك الجماعة.

وما كان على الشابي من حرج لو قنع بأن يكون تونسيا، يتغنى بآلام التونسيين وحدهم، يوقظ أمانيهم، ويكابد مشكلاتهم ، وهي كبيرة وكثيرة، ليكسب بطولة محلية كغيره من الشعراء الانطوائيين الذين يعيشون في أصدافهم؛ ولكنه غنى كل أمة منكودة، ودفع كل شعب مغلوب، ليبحث عن حقيقته، ويغتصب حريته من الاستعمار والطغيان غير نادب ولا مؤنب، ولكن في حنو ومرحمة، وزمالة طيبة متعاونة.

هكذا يحدثنا أبو القاسم كرو في حرارة وعمق إيمان بعبقرية الشابي.

وكان من تمام الايمان بالشابي والانتصاف له أن يرد عنه هجمات الحاقدين وأوهام الجاهلين، وهم كثيرون، وقد فعل..

لقد تنقل بنا المؤلف في حياة الشابي وإنتاجه، فبعد الموازنة المستوعبة، يقفز الى "قمة الشابي" فيعرض لنا صورة رائعة لهذا الملاك المحلق.

وفي الفصلين الأخيرين يتركنا مع الشابي وجها لوجه، يتحدث الينا عن عالم الغيب بشعره الرائع وروحه الحنون، ويروينا من نبعه الصافي عن " الوطنية العميقة " ثم يجول بنا في معرض " الطبيعة عند الشابي "وليست الطبيعة عنده زخرفا ولا زينة، ولكنها وسيلة جذابة للكشف عن جمال الوطن، واستقطاب محبة الشعب حوله، واستمساكه بوطنيته الصادقة.

ولم يكتف المؤلف بهذه الجولة في شعر الشابي، ولكنه ترك له قطاعا من الكتاب يتحدث فيه عن مبادئه وفلسفته تجاه الحياة، ونظراته في الوطنية، ويروي لنا ذكرياته المحببة التي تشيع في جوانبها حرارة الكفاح.

الحق ان الذي يقرأ هذا الكتاب ينتهي من قراءته وهو مجهد مشدود الاعصاب، لانه لا يستطيع ان يكون قارئا فحسب بل لا بد ان يعيش الصورة التي جلاها المؤلف لحياة الشابي القلقة المتوترة والمتبرمة بالحياة، الساخطة عليها، وهي في نفس الوقت حانية عليها متفائلة بعطائها.

وقد ينقم القاريء على ما كابد الشابي في حياته من آلام الحياة، وأحقاد الناس ولكنه لا يشعر ابدا بالرثاء للشابي او الإشفاق عليه، لأنه كان بطلا انتصر على آلام نفسه، وعلى معوقات شعبه وكان عملاقا من عمالقة الاساطير، وان اتشح بوشاح التواضع.

ولقد جهد الاستاذ أبوالقاسم محمد كرو ان يجعل هذا الكتاب صورة صادقة لشخصية الشابي ونضاله وانتصاراته، حتى تأكدت عبقريته في وعي الجماهير العربية، واصبح على قصر حياته انشودة حلوة على كل الالسنة العربية، لقرب شعره من القلوب الفتية الطامحة الى الحرية، ولروعة حياته الرقيقة والمليئة بالكفاح والعبقرية حتى أخمل الكثيرين من معاصريه من شعراء تونس خاصة وبعض الشعراء العرب المعاصرين بوجه عام.

وبهذا الكتاب وبغيره من الكتب اصبح أبو القاسم كرو هو المؤرخ الصادق الأمين لحياة أبي القاسم الشابي(1) .

---

(1) طبع الكتاب لاول مرة في بيروت عام 1954 ونشر المؤلف مقاله عنها في جريدة الصباح التونسية عدد 18 ـ 11 ـ 1955 .

رسائل الشابي

جمع : محمد الحليوى

من مظاهر الجد لدى مؤرخي الشابي المعايشين له أنهم حريصون على حفظ المصادر الأصلية لهذا التاريخ، وجمعها وإعدادها للتداول ليقوم تاريخه على الأسس العلمية المعتبرة.

ومن حسن حظ تاريخ الأدب المعاصر أن أصدقاء الشابي قد احتفظوا بكل نبضة من نبضات شخصيته حية دافئة حتى اليوم بصورة قل أن نجد لها مثيلا حتى بالنسبة لكبار الأدباء في العالم العربي.

ربما ساعدهم على هذه الإحاطة قصر حياة الشابي، وانحصارها في نطاق زماني ومكاني ضيق.

وإذا كانت الحياة قد قست على الشابي قسوتها المنكرة فإن التاريخ المعاصر قد أصبح حفيا به أبلغ الحفاوة، بفضل ما يقدمه أصدقاؤه وحواريوه.

ومن حواريي الشابي الذين قاسموه حياته الكاتب الشاعر محمد الحليوي الذي تعرف عليه في وقت مبكر من حياتهما، ثم جرت بينهما مراسلات اتصلت على مدى خمس سنوات من منتصف عام 1929 الى ما بعد منتصف عام 1934، وهي أخصب فترات حياة الشابي، التي أصدر فيها كتابه عن "الخيال

الشعري عند العرب"، ونشر فيها معظم أشعاره، وأعد فيها ديوانه للنشر.

وفي كتاب "رسائل الشابي" يعرض محمد الحليوي أربعا وثلاثين رسالة وجهها اليه الشابي، كما يسجل ردوده على هذه الرسائل في أربعين رسالة وجهها هو إلى الشابي، ثم أتبعها بعشرين رسالة كتبها صديق الطرفين محمد عبد الخالق البشروش.

ومع أن هذه الرسائل كما يقول جامعها "رسائل شخصية، تتناول مشاعر صديقين يتحدثان بكل حرية في مسائل أدبية، وعن أشخاص مختلفين من الوسط الذي كانا يعيشان فيه، ويتبادلان عواطف ذاتية متباينة، تتدرج من المحبة الخالصة والإعجاب المطلق الى العتاب واللوم والتعنيف" ...مع أن جامع هذه الرسائل يقول ذلك، فإن هذه الرسائل تتناول قضايا أدبية هامة، ومحاورات حول الأدب والأدباء، وتضيف حقائق ومعلومات عن التيارات والشخصيات في الاطار الفكري والثقافي للعالم العربي عامة، ولتونس ومصر بصفة خاصة.

كما تبدو فيها ظواهر جديرة بالتسجيل:

أولاها: أن المتراسلين تعمدا في مرحلة من مراحلها أن يجعلا منها حوارا أدبيا مقصودا، وشبيها بما كان بين كبار كبار أدباء الغرب، وقدّرا لها أن تنشر في يوم من الأيام،

فتحدث نفس الأثر الذي تركته الرسائل المتبادلة بين لامرتين وسانت بيف، خاصة وأن الحليوي كان يلقب الشابي بلقب " لامرتين العرب " ، ويجعل نفسه منه بمنزلة سانت بيف، كما ورد في رده على الرسالة السابعة والعشرين.

ثانيتها: يقترح الشابي في حاشية رسالته الحادية عشرة أن يتخذ موضوعا أدبيا يصلح محورا للتراسل، يتجاذب فيها الصديقان أطراف الحديث ، ويدور الجدل، حتى تظل الصداقة حية، ويظل غذاؤها روحيا جميلا.

ثالثتها: طرح الشابي في رسالته الحادية عشرة اقتراحا بتأسيس مشروع مشترك بين الأصدقاء الثلاثة — الشابي والحليوي والبشروش — للنهوض بالأدب ، وبذر نواة الحياة الأدبية في تونس، وذلك بأن يضع كل منهم مبلغا من المال بأحد البنوك أو مكاتب البريد، وما يتجمع من الأصل والفائدة يكون تحت طلب من يريد من المؤسسين أن يطبع كتابا، ويعتبر ذلك قرضا يرد فيما بعد.

ويضاف الى تلك العمديات والمخططات أن هذه الرسائل كانت مسرحا تنطرح عليه قراءات الشابي ومشروعاته الأدبية والثقافية، وميلاد بعض أعماله الفنية، وكانت تعرض بطريقة عفوية وتلقائية، ومنها نتبين جملة من قراءته، وطرفا من المؤثرات في أدبه ، فقد قرأ للعقاد وأعجب به وبكتب " الفصول "، و " المطالعات "، و " ساعات بين الكتب "،

وديوان « وحي الأربعين »، وقرأ للمازني كتابه « حصاد الهشيم »، وقرأ لمخائيل نعيمة كتاب « الغربال »، وقرأ لجبران كتابيه « العواصف »، و« الأجنحة المتكسرة »، وقد أغرته هذه القراءات بالعودة الى المعري، وابن الرومي، وابن الفارض ، وابن عربي، كما قادته الى قراءة الأدب الرومانتيكي المترجم عن زعماء الرومانتيكية في الغرب.

كذلك قرأ جملة من شعر أبي شادي ، ونقد الرافعي، وفصول الزيات، وبعض كتب طه حسين ومقالاته في مجلة الرسالة، وفصول هيكل في جريدة السياسة الأسبوعية، وبعض كتب أحمد أمين.

وقد انطرحت هذه الاعمال كلها في شعره بطريقة واعية أحيانا، وفي كثير من الأحيان بطريقة لا واعية.

والذي يجعل لهذه الرسائل قيمة أدبية وتاريخية هو ما تضمنته من آراء أصيلة في الأدب والأدباء، وفي الثقافة وشؤون الفكر العربي المعاصر بصفة عامة، وترجع قيمتها الى أنها آراء منصفة وواقعية، وليست واقعة تحت تأثير أية ضغوط ، بالاضافة الى أنها خالية من أي تهجم أو محاباة ، ومع ذلك فهي آراء شخصية ، يحمل صاحبها كل تبعاتها، ويدافع عنها بشجاعة.

وأبرز آرائه في الأدب ما سجله عن العقاد وأبى شادي ومجلة أبولو.

فعن العقاد يقول عقب قراءته لكتاب " ساعات بين الكتب " : " لقد تمليت بما فيه من صور الفن، ومثل الحياة ما لا ينتج الا عن ذهن جبار ولود، وعبقرية نادرة خارقة، أما لغة الكتاب وأسلوبه فهو الأسلوب القيم الجميل الذي لم يكتب العقاد فيما سبق خيرا منه".

ثم يقول فيما كتبه العقاد عن شكسبير : " لقد كتب العقاد فيما كتب عن شكسبير كتابة لو علم أنها ستكتب عنه لمجد نفسه ألف مرة ، كتب عنه كتابة لا أحسب أنها كتبت عن بشرى من قبل ... ".

وعن ديوان " وحي الأربعين " يقول : " فيه ما شئت من فلسفة ناضجة في الحياة والناس، وغزل مطول، ووصف شامل نفاذ، وسخر لاذع عميق، أما أسلوبه فهو أرقى من أسلوب أشعاره الماضية ، ولا غرو فهو العقاد".

أما أبو شادي فقد كان هو الذي بدأ — على عادته — بالكتابة الى الشابي، يدعوه للمشاركة في تحرير مجلة " أبولو "، والشابي يقول في حاشية رسالته الحادية والعشرين، المؤرخة في أول يناير عام 1933 : " ورد علي في بحر الأسبوع الماضي العدد الرابع من مجلة أبولو المصرية ، وهي مجلة لخدمة الشعر الحي، ثم ورد علي بعد ذلك بيوم من سكرتير الجمعية ورئيس تحرير المجلة الدكتور أبي شادي مكتوب يقول فيه إنه يرغب مني امداد المجلة بما يمكن من شعر ونثر".

ثـم يقـول في رسالتـه الثانية والعشرين ردا على الحليوي :

" إنني أشاركك الإعجاب بمجلـة أبولـو، ولكننـي أرى أن بينهـاوبين السمـو خطوتين :

الأولـى: أن يقسو صاحبهـا في انتخاب ما يرد عليـه، فلا ينشر الا ما سمـت روحه وشرف أسلوبـه، حتى أصبـح جـديرا – ولـو أقـل من كل الجدارة – أن يصير فنـا.

الثانيـة: مشاركة عظمـاء مصر في تحريرها، كالعقاد، والمازني، وطه حسين، ومن لف لفهم، فإن الطبقة التي تحررهـا هاتـه الأيام – وخصوصا في النثر – ليست من القوة في شيء.

أما علاقتي بأبولـو فقد وجهت لها قصيدين، ومعلوم الاشتراك، وطلبت من صاحبها أن يوجه الي الأعداد الأولى منها، وقد ورد علي كتاب منه بعد ذلك، وطيه معلـوم الاشتراك نفسه، قائلا انـه يستميحني عذرا في إرجاعـه، لأن المجلـة توجه الي كهدية خالصـة، كما أهدى إلي نسخـة من ديوان له اسمـه " أشعـة وظلال" ووجـه إلي الأعداد الأولـى من المجلـة ".

وبنفـس الاتزان والتجرد والتحليـل يبدي رأيـه في أبي شادي وشعـره : " الحقيقـة أنني كنت لا أستطيع أن أتم قصيدة لأبي شادي، ولكنني رضت نفسي على أن أتابعـه حتى ألفتـه، فتبين لـي أن الرجل في صميمـه شاعـر حساس، يمتاز بروحانية صوفيـة في نظرتـه الى الوجود ، ولكن الـذي أسقط من قيمـة أدبـه شيئان :

1) أنـه متعجل مكثار، لا يصبر على التجويد الذي هو عمـل لا بـد منـه للفنان المتسـامي.

2) أن صوره الشعرية لا تبدو واضحـة كاملـة في شعره، بحيث ترغمك على تذوقها والاستمتاع بهـا، بل انهـا لتبدو ملتاثة غائمـة سريعـة كـل السرعـة، كأنهـا صور شريط سينمائي يدار بسرعـة جنونيـة، وهذا السبب ينأى بالناس عن تذوق شعره، وإدراك ما فيـه من صور شعريـة وإحساسـات عميقـة، تدل على نفـس واعية، ولذلك فشعره يبدو فاترا في كثير من الأحيان....»

وفي هذه الرسائل تتناثر وقائع حياة الشابـي ، وأزماته النفسية والماديـة، وميلاد بعـض أعمالـه، وتعتبر الرسالـة التاسعة والعشرون المـؤرخة في 19 من ديسمبر 1933 من أهـم رسائلـه في هذا الصـدد، اذ تحدث فيهـا عن ضياع ديوانـه الذي كان يعده للطبع ، وما أحدث له ضياعه من أزمة نفسيـة انجلت عن تحول خطير في حياتـه الفنيـة، ومن خلالهـا نستشف طريقتـه في إنجاب روائعـه الفنيـة، وفي هذه الرسالـة يقـول :

«... " لقد ربحت من تلك الأزمـة التي مرت بي قصيدا هو " نشيد الجبـار "، فـإني في ليلـة من ليالي هاتـه الأزمـة نمت معذب النفـس مهمـوم القلب، ثم استيقظت في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فلجت بي الآلام، وضربت بي في كل سبيـل ... وتطورت نفسي في غمرة الالم، فبعد أن كانت معذبـة باكية في ظلمـة أحزانهـا ... انقلبت ثائرة هائجة ، واثقة من نفسهـا،

ساخرة من القدر والداء والأعداء وكل آلام الحياة، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت " نشيد الجبار " ، فذابت آلام نفسي، وشعرت بالحرية والانطلاق... وقد نظمتها في تلك الليلة، ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها، وفي نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت كلمة واحدة ، فكتبتها، ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين، وبعض تنقيحات وجدتها لا بد منها.

... والفرق بيني وبين نفسي الأولى أني كنت أتقبل آلام الحياة، وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة، وقلب دامع، أما الآن فإنني ألقاها ببسمة الساخر، ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود، وقد أحسست بهذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له أكبر الأثر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونماه، أما الآن فانني أشعر بانقلاب عميق في نفسي، قوي كل القوة، وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد " الصباح الجديد " ، وقصيد " نشيد الجبار "، وهو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد ".

وهذه الرسالة من أهم رسائل الشابي كذلك، لأنها تحلل مرحلة نفسية وفنية من مراحل تطور الشاعر ، وتضعها في إطار التحليل العلمي، فتتقصى الظواهر، وتتبين الدوافع، وتخرج بنتيجة منطقية، يؤيدها التطبيق.

والواقع أن نشر رسائل الشابي على هذا النحو جهد محمود يضع وثيقة هامة، ومادة علمية بين يدي مؤرخي حياة الشابي، ومؤرخي هذه الفترة من تاريخ الأدب العربي المعاصر.

كما أن وضع هذه الرسائل في بيئتها الطبيعية بين رسائل الحليوي ورسائل البشروش أضاف اليها قيمة دراسية جديدة، وألقى بها أضواء كاشفة على هذه الحياة المجيدة لشاعر عربي عبقري معاصر. (1)

(1) قدم للرسائل ونشرها بتونس أبو القاسم محمد كرو ، بمناسبة المهرجان الذى اقيم للشابى عام 1966 .

دراســات عــن الشــابى

من سلسلة « مكتبة الشابى »

من تمام عناية الادباء والنقاد التونسيين بشاعر تـونس الاكبر أبى القاسم الشابى حرصهم على جمع ما كتب عنه ، ونشره ، ووضعه فى متناول القراء والدارسين ومؤرخى الادب المعاصر .

وفى هـذا الكتاب ـ وهو الحلقـة الثانية من سلسلـة مكتبـة الشابى ـ حرص الاستاذ أبو القاسم كرو على جمع ما وقع فى متناول يده من دراسات وبحوث ونشره تحت عنوان « دراسات عن الشابى » تناولت ما كتب عن الشابى منذ وفاته عام 1934 حتى الستينــات ، وقد أحسن كرو صنعـا بجمع هذه الكتابات التى كانت مبعثـرة فى شتيت الصحف التى احتجب الكثير منهـا ، وأصبح العثور عليهـا يمثل صعوبة كبيرة ، بل قد يندر الحصول عليها بالنسبـة لدارسى حياة الشابى ومؤرخى أدبه .

ولقد صنفها الناشر فى قسميــن : الاول دراسات من المغــرب ، والثانى دراسات مشرقية .

وكتاب الدراسات المغربيـة هم الاساتذة : الشاذلى القليبــى ، وكرو ، وفريد غــازى ، والعروسى المطوى ، وعامر غديرة ، ومحمد بدرة ، والهادى العبيــدى ، ومحمد البشروش ، وابراهيم بورقعـة ، والبشير الفـورتى ، وهم من تـونس ، وهناك آخــران هما خليفـة التليسى من ليبيا ، وعبد الله شريط من الجزائر .

أما كتــاب المشرق فهم الدكاترة والاساتــذة : محمد منــدور ، ومصطفى بدوى ، وحسن محمود ، ونظمى خليــل ، وهم من مصر ،

ثم عبد المجيد عابدين من السودان ، وشوقى أبو شقرا من لبنان .

ونحن نعرض هذه الدراسات حسب ترتيبها فى الكتاب ، بغض النظر عن موضوعاتها ، فقد يتكرر الموضوع عند أكثر من كاتب ، وقد تتوارد الافكار عند بعض الكتاب ، وقد تختلف وجهات النظر فى الحقيقة الادبية الواحدة .

وتبدأ الدراسات المغربية بعد مقدمة الناشر بدراسة الشاذلى القليبى عن « الشابى وتجربة الفجر البعيد » ، يقول فيها : اننا لا نستطيع دراسة نفسية الشابى الا اذا عرفنا بالتحديد تاريخ ميلاد قصائده ، والظروف النفسية التى قيلت فيها ، ويلاحظ أن الشابى يرفض الحياة البشرية ، لانها حياة الشقاء والالم ، ويتجه بحياته الفنية الى عالم يتلألأ نورا وسعادة ، وهو يرمز الى هذا العالم بالنور، والفجر البعيد ، والصباح الجديد .

ويتحدث أبو القاسم كرو عن « ميلاد الشابى » ، متفقا مع القليبى فى أن الشابى كان يتوق الى التجربة الجديدة ، تجربة الموت، ليصل الى عالم الخلود الملىء بالسعادة ، ويزيد فيعرض حفاوة الشابى بشعبه ، فهو يستنهض هممه ، ليصل بكفاحه الى المكانة الجديرة به ، ويحقق لنفسه الحرية والكرامة والاستقلال .

ويتساءل الدكتور محمد فريد غازى فى بحثه « كيف ندرس الشابى ؟ » ويجيب بأنه يمكن دراسة الشابى كشاعر فرد ، كما يمكن أن يدرس باعتباره فردا من أفراد المدرسة الرومانتيكية ، وهى وسط بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الرمزية . ثم يدعو الباحثين الى وضع تخطيط علمى لدراسة الشابى ، وذلك بتأريخ قصائده ، وربطها بالبيئة ، وجمع رسائله ويومياته التى هى صورة دقيقة لحياته ، وكذلك بقية آثاره المبعثرة ، وجمع شهادات معاصريه، وبحث البيئة الفكرية التى عاشها الشاعر ، والتعريف بمعاصريه

وخلطائه ، وحتى الشعراء الصغــار الذين أخملهم ، لانهم يشكلــون ديناميكية الحركة الادبية والفكرية .

وللعروسي المطــوى دراسة عن « الشعب فى شعر الشابى » ، يتساءل فيها ما هو شعور الشابى نحو شعبه ؟ ويجيب : هو شعور الاشفاق والحسرة والحنــان والاثارة ضد الظلــم والفساد ، وتهــديد الطغاة بالثورة الشعبية الجارفة ، ثم هو شعور الغضب على الشعب ، وأخيرا هو الاعتزال والهروب الى عالم الخيال .

وفى دراسة مقارنــة « بين الشــابى وجبــران » يــرى خليفــة التليسى أن الشابى تلميــذ لجبران فى الخصائص الفنيــة ، وفلسفة الحياة ، والحب والحرية والتمرد والثــورة على كل قديــم ، ويؤكد أن الشابى تأثر بجبران وبالادب المهجرى على العموم تأثرا عميقا .

وعامر غديرة يكتب عن « محاولة جعل اطار لترجمة الشابى » متبعا طريقة التحقيــق العلمى المرتكــز على اعمال الــرأى ومشاهدة الوثائق والرجوع الى المصادر الموثوق بها ، على أن يعتبر هذا اطــارا لبحث تتضافر عليه كل الجهود ، اذ لا يكفى فيه عمل الفرد .

وتطبيقــا لهذا يتتبع الباحث أهم التواريخ والوقائع والاماكــن التى لها أثر فى حيــاة الشابى ، ثم يحقق البيئــة الاجتماعيــة التى أثرت فى فنه ، وأول قصيدة أنشدها بالعاصمة ، ثم يعرض لطرف من حبــه .

وعن « أبى القاسم الشاعر » يقول محمد بدرة : ان الشابى هو الذى أعلى صــوت تونس فى العــالم العربى ، وحــافظ على التــراث اللغوى ، وهو يعتبره مثــلا أعلى لمجــددى الادب المعــاصر ، بتــوخي البساطــة ، لانه يكتب من فيض الــروح ، ويحتضــن الشعب ، ولا يعنى بالتشبيهات الهندسية المقوتة .

وفى « ذكرى ميلاد الشابى » يتحدث الهادى العبيدى عن البيئة التى أطلعتـه من بيـن الجمـود والرجعية ، فأصبـح يبشر بالحريـة والتجديد والانطلاق ، ويظل ماضيـا فى استنهاض همم شعبـه على الرغم من سدنـة التقاليد ، لكن رفاهـة حسه ، وتحالف الامـراض عليه جعلت نزعة التشاؤم تنتابه ، فانزوى عن المجتمع ، وأخذ يهوى ويهوى حتى فارق الحياة ، ولكنه استطـاع أن يخط لنفسه سطـور الخلـود .

وعن « الشابى والحياة » يتحدث عبد الله شريط عن الحياة وكيف عرفها الشابى معرفة عميقة فى هذا العمر القصير، وكيف تبرم بها ، وكيف نفر من المجتمع ، وكيف يئس من الشعب ، لكن الشابى كان مع ذلك مؤمنا بالحياة ، واثقا من غاياتها الخيرة ، ومثلها العليـا التى يؤمن بها ايمانا كاملا ، ومن هنا استطاع ان يفرغ من تذوق الحيـاة بسرعة مادية هائلـة ، وأن يتخذها معبرا الى صميم الحقيقـة ، وهى الموت الذى هو بالنسبة له صباح جديد .

وعن « نفس الشابـى » يتحـدث محمد عبد الخالـق البشروش رفيق حياته ، فيقول : ان حياته شيدت على العطف العميق ، فعـاش يتعاطف مع الكون ، ويبادله المحبـة والفهم ، ويتغنى بـآلام الحيـاة وأفراحها ، وفى عزم صادق يصارع القدر ، ويغالب المصاعب ، ولكن التشاؤم كان يصبغ حياته ، الا أنه تشاؤم أملته الصلابة والعـزم ، وليس تشاؤم الضعف والتهافت .

وعن « حيـاة أبى القاسم الشابى » يحكى ابراهيم بورقعة عـن بداية الحيـاة الثقافية للشابى ، وكيف كـان منـذ صباه يتـردد على المكتبة ، ويستعير الكتب والمراجع الاساسية فى الادب ، وهى يومئذ كتب أكبر من سنه ، وكيف كـان يخفى أدبـه وأشعاره عن أقـرب الناس اليه خوفا من استنكاره أو مصادرته من قبل أبيه ، الذى كان يريد ان يعده لشى آخر ، وبالفعل كان هو يعد نفسه للتصوف ،

فقرأ في هذا الوقت المبكر للغزالي والتبريزي وابن عربي ، ثم تغير اتجاهه بعدما ورد على الجامع الاعظم ، فتحول الى كتب جبران ، واستوعب كتاباته بشغف ، حتى أصبح وكأنه يكتب بقلمه ، وينظر الى الحياة بمنظاره ، مما شجعه على العودة الى كتب القدامى ، ثم الى أدباء الشرق المعاصرين ، ثم الى المترجمات من أدب الغرب ، ومن هنا أصبح الادباء العالميون هم مثله الاعلى الذى اقتفاه ، وآية ذلك أنه لم يسخر شعره لمدح أو هجاء أو رثاء .

أما بحث البشير الفورتي فكان موضوعه « أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته » ، وهو يشير الى تأثره بجبران ، وبمجالس الادب ، والاجتماع بالادباء ، وكيف كانت له عينان ثاقبتان تنظران الى الوجود نظرة ساخرة تهزأ من الحياة .

ومرة أخرى يعود الينا أبو القاسم كرو بفصل عنوانه « ما يجب نحو الشابي » من باب درء الجهالة التي ما زالت تحيط بدقائق حياة الشابي خاصة ، وبواقع الادب والفن في تونس والمغرب العربي بوجه عام ، والشوط الطويل الذى لا بد منه للاعلام بالحياة الادبية في المغرب لدى أبناء الشرق العربي ، ويحدد واجب الشعب والدولة ازاء الشابي بنشر مؤلفاته ومعلومات كل معاصريه عن وقائع حياته ، وتحقيقا لذلك يقترح الباحث تشكيل لجنة لنشر كل ذلك ، واقامة قسم خاص في دار الكتب التونسية أو بمتحف باردو ، يضم كل تراثه ، واقامة تمثال له بالعاصمة وآخر بمسقط رأسه ، واطلاق اسمه على بعض الشوارع والمدارس في تونس وفي المدن الاخرى .

والى هذا الحد تنتهي الدراسات المغربية لينتقل بنا الكتاب الى الدراسات المشرقية التي تبدأ ببحث للكاتب الناقد المصري الجهير ، الدكتور محمد مندور ، بعنوان « الشابي .. روح ثائرة » ، وفيه تبدو شخصية الشابي المتمردة ، التي أمدته بطاقة شعرية قوية ،

كانت أقوى الطاقات الشعرية الضخمة بين جماعة أبولــو التى كان ينتمى اليها ، ويكاد يكون شاعرا مصريــا بروحه وشعره الــذى نشر معظمه فى مصر ، ومن مصر اشتهــر وذاع صيتــه فى أنحاء العالــم العربى ، وهو الشاعر المغربى الوحيــد الذى شاعت المعرفة بــه فى مصر ، وتم التسليم بعبقريته الممتازة .

وينفى مندور تأثر الشابى بالادب المهجرى أو المصرى ، ويقــرر أن تجديده نــابع من عبقريته الفريــدة وموهبته المتميــزة ، وروحــه الثائــر ، وصراعه الدائم ، وارادتــه التى تذكر بارادة الحيــاة عنــد شوبنهور ، وارادة القوة عند نيتشه ، لكنها ارادة أصيلة نابعة مــن شخصية الشابى نفسه .

وللدكتور مصطفى بدوى دراسة عن « التقرير والايحاء فى شعر الشابى » حيث يقرر أن الشابى ينتمى الى المدرسة الرومانتيكية التى تزعمها أبو شادى فى ثلاثينات هذا القــرن ، وهى المدرسة المقابلــة للمدرسة الكلاسيكية ، واذا تميزت هــذه بالاسلوب التقريرى فــان المدرسة الرومانتيكية تتميز بالنزعة الايحائيــة ، ومن أبرز ممثليهــا أبو القاسم الشابى الذى نستبين سمات الاسلوب الايحائى فى معظم شعره ، وخاصة قصيدته « الصباح الجديد » التى تمتاز بالنغم الهادىء الموحى الذى يكمن وراء احتفاء الشاعر بحياة سامية بعد هذه الحياة ، تجعله يتجــاوز هذه الحياة بــآلامها ومــآسيها ، ولهــذا فهى ترحيب بالموت ، وان بدت فى ظاهرها انتصارا على الآلام ، والفضل فى ذلك راجع الى الاسلوب الايحائى الذى يصطنعه الشابى .

والدراسة التالية لحسن محمود بعنوان « نظرة فى شعر الشابى عامة » وفيها يقــرر أن الشابى فنان قارب نهايــة العبقرية فى هــذه الفترة القصيرة من حياته ، ويلخص عناصر التجديد عند الشابى فى ابتكار العناوين التى تشى بالرمزيــة ، وفى روح التمرد والثــورة ،

والسخرية من الحياة وعطفه على من فيها ، وفي المسحة الفلسفية التى تغلب على شعره ، وولعه بالطبيعة ، ونزعة التشاؤم ، والنغم الحزين المسيطر على شعره ، كما يمتاز تجديده بوحدة القصيد .

و « فن الشابي » هو موضوع بحث نظمي خليل الذى يتساءل : ما هى رسالة الشابي ؟ ويجيب بأنها رسالة القلب الانسانى ، فانه شاعر يحس وليس فيلسوفا يفكر ، ويلجأ الى الطبيعة هربا من الانسان لما لقى من عنت الناس وقسوة المرض . وهو فى اللجوء الى الطبيعة والعودة الى الطفولة يذكرنا ببيرون ، روسو ، وكيتس ، لكنه ينفرد بمكونات شخصيته وبأسلوبه وتعابيره وتراكيبه المبتكرة .

أما الدكتور عبد المجيد عابدين فيعقب على الكتاب الذى ألفه كاتب سودانى وقارن فيه بين الشابي والتجانى بشير فى النشأة والثقافة والنزعة النفسية والفلسفية والتصوف والزهد .

وبالتقصي والتتبع لانتاج كل من الشاعرين يفند الباحث آراء المؤلف ، لانه أقام كتابه على أساس من الظن ، ولم يقم آراءه على المراجع أو الاسس العلمية المعتبرة .

وأخيرا يعرض الكاتب الناقد شوقى أبو شقرا كتاب « الخيال الشعرى عند العرب » ، فيبين كيف عالج الشابى ناحية الخلق الفنى فى الشعر العربي ، وكيف درس خيال الشعراء العرب ومواقفهم ازاء المظاهر الجمالية فى الاسطورة والطبيعة والمرأة والقصة .

وبعد ..

فبهذا الاستقصاء يكون الناشر قد أسدى لتاريخ الشابى منة جديدة الى جانب ما كتبه عن الشابى ، والى جانب احتضانه لكل ما يكتب عنه ، هنا وهناك .

ومن كمال الدقة أن كل بحث في هذا الكتاب مذيل بتاريخ نشره والمصدر الذى نشر فيه ، وان كان الناشر لم يعقب عليها ، بل ألقى التبعة على أصحابها ، الا فيما اقتضاه واجب التصحيح الضرورى وفاء بأمانة الحقيقة .

نثـــر الشـــابـــى
« فـــى مـــذكـــراتـــــه »

اشتهـر الشابي أكثر ما اشتـهـر كشاعـر عبقري مجلجـل لصـوت تمجـدت بـه تـونـس ، وتمجـد به العـالم العربـي المعـاصـر بأسـره.

لكـن الوجـه الآخـر للشابـي كناثر فتان وككاتب وباحث ونـاقد كان أقـل شهـرة، مـع أنـه في نثره الفني بالذات لا يقـل جودة ولا أصالة ولا أنـاقـة عما عرف بـه كشاعـر.

ولقـد قدمناه من قبـل في لون من نثره الحر الطليق، في رسائلـه التي كشفت عن جانب هام من جوانب حياته العبقريـة، وأفصحت عن الـدوافـع التي أثرت في أدبـه وفنـه، وألقت الضوء على شيء من علاقاته الاجتماعيـة ومجمـل مواقفـه من الناس والحيـــاة.

واليوم نقدم لونا مشابهـا من انتاجـه النثري الطليق في هـذه المذكرات التي دونها في صورة يوميات قصيرة، لا تتجاوز اثنتين

وعشرين يوميـة، تبدأ في الأول من يناير عام 1930، وتتتابع في الأيـام التسعـة الأولى علـى التوالي، ثم تتناثر حتى تنتهـي فـي السادس مـن فبرايـر في نفـس العام.

ويـقـول ناشر هذه المذكرات انهـا " مذكرات قيدهـا الشاعر في كلمـات، يوما بعد يوم ، مسجلا فيهـا خواطره وملاحظاتـه، ونقـده لمجتمعـه، وآراءه الكثيرة فيمـا حـولـه.

ولقـد تمـر بقصائـد الشاعر كلهـا فلا تجدها تمثل شيئا ممـا صرح بـه هنـا، ومن أجـل ذلك أصبـح ضروريا لفهم الشابي وتصور أدبـه على الوجه الكامـل أن يحيـط الدارس، بـل أن ينفـذ الى أعمـاق هـذه المجمـوعـة من النصـوص التي كتبهـا أبو القاسم عن قصـد ، وحـررهـا مسجـلا بهـا خلجات نفسـه ورشحـات قلمـه ".

وهـذه المذكرات هي فـي الواقـع جانب من جوانب نفسـه، يكمـل ما قـالـه فـي شعـره، وما تبادلـه في رسائلـه ، فقد كان فـي شعـره يخاطـب الناس جميعـا على امتداد الوطن العربـي كلـه بكل أجيالــه، وكـان في رسائـلـه يخاطب صديــقه ، ويبثـه جانبا من فكـره ورأيـه وآلامـه ومطامحـه، أمـا هنـا فهـو – في الظاهـر – يكتب لنفسـه، يناجيهـا، ويستبطـن خفاياهـا.

واذا كانت هنـاك دواع خاصة للشعـر، وحوافز خاصـة للتراسـل، فـإن دوافـع هذه المذكرات تظـل خفيـة ، الا اذا كشفهـا لنـا الكاتب أو الناشـر ولـم يفعـل أحدهمـا ذلك، غيـر

أننا نعتقد أنها ربما كانت تجربة فنية أراد بها الشاعر لونا آخر من ألوان الانتاج ، ونجاحها أو اخفاقها متروك في النهاية للقاريء، أو أنها تجربة نفسية خاضها الشاعر ، وكانت هذه المذكرات لونا من ألوان التنفيس، بالاضافة الى الدافع الفردي لدى كل انسان من أن يخلو الى نفسه ساعة من نهار ، يحادثها وتحادثه بخفايا الصدور.

وهذه المذكرات في مضمونها تدور حول استبطان النفس وتصوير خلجاتها، وترسم آمالها وأمانيها وأحلامها من خلال لوحات رائعة يمتزج فيها الانسان بالطبيعة امتزاجا كاملا ، فيها الحنين الى الماضي بأخيلته الزاهية، وفيها – كما في شعره – هروب من الحياة ، وشعور بالغربة، ولجوء الى الطبيعة الحنون، وتصوير لخلجات المجتمع، ورسم لشخصيات معاصرة عايشها الشابي وحولها الى صور نموذجية، أو صور ساخرة، تبرز مشاعره تجاه هذه الشخصيات اعجابا أو سخطا، أو حنوا وتعاطفا، وفي هذه الشخصيات السوي، وفيها الشاذ، ولكن الكاتب يصورها بصدق ودقة، وقد يستخلص منها العبرة والموعظة من خلال المحاورات الفلسفية، وقد يتحدث الكاتب أحاديث مباشرة عن وقائع محددة وأشخاص حقيقيين، يعرض من خلالها للنشاط الأدبي والفني والثقافي في تونس، الذي يشارك في دفعه وحثه الى التقدم، والدخول إلى آفاق العلم الحديث ونبذ الجمود والتعصب والخرافات والرجعية.

وأحيانا يلجأ الكاتب الى الخواطر الحزينة يجترها ويجسدها

أمـام القاريء الذي لا يستطيع أن يسلـم من عدواها والوقوع تحـت سيطرتهـا، وقد تتخذ المـذكرات أسلـوب المناجاة الضارعـة المعترفـة بالضعـف والعيوب والمـزاج العصبي وشذوذ التصرفات، والثورة علـى التشاؤم، ولكنهـا ثورة ضعيفـة لا تلبث أن تضمحل وتعـود للهـروب الى أحضان الطبيعـة والى الماضي الملـون دائمـا بألـوان الطـفولـة الأخـاذة.

ومن خلال كل هذا تتكشف حياة الكاتب وشخصيتـه، تـارة من خلـف ستار شفاف، وتارة بطريقـة مباشرة، يتحدث فيهـا عن وقائـع حياتـه، وعـن قراءاتـه، وعـن أصدقائـه، وأحوال مجتمعـه، ورصد خطوات التقـدم علـى أرضـه.

أما أسلـوب المـذكرات فهو أسلـوب فني أنيـق، يتسـم بحرارة الشاعريـة، أسلـوب حلو مسترسـل، يروع قارئـه ويطربـه، ويملأ النفـس بالاعجاب والاحترام، بما فيـه من عمـق المـوسيقـى، ورقـة العبارة، ودقـة النسيـج، وانسياب الألـوان، وحيويـة الصـورة.

يقـول في أولـى يومياتـه التـي تعـد قطعـة حيـة من الطبيعـة الساحـرة : " في سكـون الليـل، هـأنا جالـس وحـدي، فـي هـاتـه الغـرفـة الصامتـة الى مكتبي الحزين، أفكر بأيامي الماضية التي كفنتهـا بالدمـوع والأحـزان، وأستعـرض رسوم الحـياة الخاليـة التي تناثرت من شريط ليالي وأيامي، وذهبت بهـا صـروف الـوجـود الـى أوديـة النسيـان البعيـدة النائيـة.

أنا جالـس وحدي فـي سكون الليل، أستعـرض رسوم الحياة،

وأفتكر بأيامي الجميلة الضائعة، وأستثير أرواح الموتى من رموس الدهور.

هأنا أنظر الى غيابات الماضي، وأحدق بظلمات الأبد الغامض الرهيب.

هأنا أنظر، فأرى صورا كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم الربيع، وتحركت حوالي كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي كأوراد الجبل.

ثم أنظر فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلبة كأمواج البحار، وأطياف ملونة كقوس قزح، جميلة كقلب الربيع، تمر أمامي ثم تختفي، وتتراقص حواليّ ثم تبتعد، ثم تتوارى في أعماق الظلام الدامسة، وأرى أحلاما ناشئة تغرد كطيور الغابات، وتنمو نمو الأعشاب، وتتفتح تفتح الورود، ثم تجف وتذبل وتتناثر فتذروها الرياح، ثم تضمحل وتتلاشى في سكون المنون... »

وهكذا تمضي اليومية الأولى كلها على هذا النمط، كالمعزوفة الحزينة، ولكنها لوحة متحركة للطبيعة الحية، المؤتلفة العناصر والألوان والمشاعر.

وحين يصور الشاعر غربته في الحياة يبررها بأن الناس لا يفهمونه حق الفهم، ولا يقدّرونه حق التقدير :

" أشعر الآن أنني غريب في هذا الوجود، وأنني ما أزداد يوما في هذا العالم الا وأزداد غربة بين أبناء الحياة، وشعورا بمعاني هاته الغربة الأليمة.

غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصي المجهول، ثم يأتي يتحدث الى قومه عن رحلاته البعيدة ، فلا يجد واحدا منهم يفهم من لغة نفسه شيئا.

انني طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة نفسه الجميلة، ولا يفهمون صورة واحدة من صور الحياة الكثيرة التي تتدفق بها موسيقى الوجود وأناشيده.

الآن أيقنت أنني بلبل سماوي قذفت به يد الألوهية في جحيم الحياة ... وتلك هي مأساة قلبي الدامية ... ".

ثم هو حين يتحدث عن هروبه من الحياة وارتمائه في أحضان الطبيعة يبرر هذا الهروب تبريرا عجيبا، حيث يقول في افتتاحية إحدى يومياته :

" ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعل خيرا لي أن أذهب الى فراشي وأنام ، لأنسى في عالم الأحلام مشاهد هذا الوجود السخيف وآلام القلب المرة الموجعة ... ".

ولعل هذه اليومية كتبت والرجل في أقصى حالات السأم والمرض والآلام الجسدية والنفسية التي عاناها طويلا.

لكن الشابي حينما يزايله المرض وتخف عنه حدة العلل، ويصحو من رومانتيكيته الموغلة في الحساسية والعزوف عن الحياة، ويعود فيشارك في علاج مشكلاتها يكتب في بعض الشؤون العامة، فيقول مثلا عن وظيفة النقد والعلاقة بينه وبين الصداقة، وعلاقة الصداقة بالحرية :

„ رأيي في الانتقاد أنه ليس شيطانا يبث بذور الشقاق، وانما هو ملاك يحمل سراج الحقيقة في سبيل الانسان، ورأيي في الصداقة أنها ليست بمعنى عبودية الفكر، ولكنها حرية النفس، فانني حينما أجلس الى صديق أحس باشعاع الحياة في نفسي، وحينما أجلس الى عدو أحس بضيق الحياة فيها، وهاته الحرية التي تحس بها النفس بجوار الصديق ليس معناها عبودية الفكر وتكبيل الضمير، لأن الحرية لا تنتج الاستعباد، ولأن صديقي الذي يحترم نفسه ويقدر عقله الذي وهبته الحياة اياه هو الرجل الذي يكون جديرا بمحبتي واحترامي، أما الرجل الذي أحبه وأستعبده بحيث يصبح ظلا لكل أفكاري وخواطري فانني أشفق عليه أكثر مما أحبه، وأرثي له أكثر مما أحترمه".

ان هذه المذكرات على قصرها صورة نابضة من حياة كاتبها، صورت في هذا المدى القصير جانبا هاما من نفس الشاعر وتقلبات الأيام به، صورته في أحلامه ويقظته، في مطامحه وفي يأسه، في موقعه من الناس وموقع الناس منه، صورت أسلوبه السوي والشاذ في حياته القصيرة العميقة، فكانت حياته على قصرها وعلى رقتها كالزوبعة الحادة العاتية، تركت أثرها على أرض الحياة رغم أنف الحياة، وما زال دويها يملأ الآفاق.

ومن خلال هذه المذكرات يبدو أن الكاتب كان يتعمد أن يدونها، فأحيانا يجد لها الوقت وأحيانا لا يجده، وأحيانا يجد

الوقت ولكنه لا يجد الكلام، وان كان في بعض صمته أبلغ منه في كثير من افصاحه ، يقول في يومية 14 يناير : " أشعر اليوم بفتور في بدني، وبتوعك في مزاجي، ولا أدري مأتاه، وأحس بكآبة عميقة تستحوذ على مشاعري ، وتقبض على قلبي، وتجعلني أكره الكتب والأسفار والمحابر والأقلام.

لا أريد أن أزيد أكثر مما ذكرت ، لأنني أرى النوم يغالبني، والإعياء يدفعني الى النعاس ".

هكذا تبدأ اليومية، وهكذا تنتهي، ونحن لا نريد منه أن يقول أكثر من هذا، فقد قال في هذه الكلمات القصيرة كل شيء ، وفهمنا نحن عنه كل شيء.

أما اليومية التي تحدث فيها كثيرا ولم يقل شيئا فهي يومية السادس من فبراير، التي لم يجد لها موضوعا ، فأدارها حول حادث قليل الأهمية ثم دخل عليه صاحبه فوجده يكتب، فسأله: ماذا تكتب؟ فقال له : أكتب مذكراتي، فقال له :وهل تجد الوقت لذلك؟ فأجابه : يوما أجده ويوما لا أجده ... وانتهت اليومية بذلك ، وكانت آخر عهده بالمذكرات التي بين أيدينا، ومع ذلك فقد دلتنا على أن هذه المذكرات كانت متعمدة وليست عفوية.

ومع أن الناشر لم يوضح لنا اتجاه هذه المذكرات ، وهل انتهت أم أن لها امتدادا ؟ فإن شهرا غير كامل ليس كافيا

ليشحذ أديب كالشابي قلمه ثم يصمت عن هذا اللون الى الأبد، وربما لو نقب المنقبون لوجدوا ما هو أكثر، ولأصبح ذلك تيارا جديدا من تيارات أدبه يلقي الضوء على جانب من جوانبه اللامعة.

وأيا ما كانت كمية هذه المذكرات واستمرارها أو انقطاعها فانها ككل أعمال الشابي تجربة ذات أسلوب رائع، وصور حية متحركة، تلقي ضوءا كاشفا على جانب من جوانب روحه الشفافة الموهوبة، وتزيد بعدا جديدا في شخصيته النادرة.

وهي في الوقت ذاته زاد لمن يريد أن يدرس حياة الشابي بإلمام وتفحص حيث يستطيع أن يستخرج من كل كلمة ومن كل نبضة مفتاحا لحياة الشابي العبقرية الخالدة، حتى تتكامل لديه سيرة من أروع السير لشاعر من عباقرة الشعر العربي المعاصر.

---

(1) طبعت المذكرات لاول مرة فى تونس عام 1966 .

شعر أبى القاسم الشابى
فى ديوانه « أغـانى الحيـاة »

ـ المرحلـة الاولـى :

ظـل شعـر أبـي القاسـم الشـابي علـى مـدى ربـع قرن مبعثرا، لا يضمـه ديوان منشور، منذ جمعه الشاعر، واعتزم ارسالـه الى الدكتور أحمـد زكي أبى شادي رائـد جماعـة أبولو لينشره في القاهـرة، حسـب اتفـاق سابـق بينهمـا. لكن القدر لم يمهل الشـابـي حتى يرى شعـره منشورا في ديوان،و اختفـت مجموعة أشعـاره التي نسقهـا وحذف منهـا وأضاف، وأعدهـا للنشـر.

حتـى كان عـام 1955، حينمـا انزاحت كل العقبات والأشخاص الـذيـن كانـوا يترصدون الشـابـي في كـل طـريق، فأصبح الجو مهيأ لكي ينتشر شعـر الشابي في ديوان، فقام شقيقـه الأميـن الشـابي بنشر ديـوان " أغانـي الحيـاة " كما سماه الشاعر وكمـا جمعـه ورتبـه، وبالقدر الذي اختاره، بعد أن محا منـه ما محا، وأثبت فيـه ما راق لـه أن يثبتـه، ومن المؤكـد أن الشابي قـد أسقـط مـن شعـره بعـض القصائد التي لم يرض عنهـا، فلم يثبتهـا في الـديوان، لأنهـا من وجهـة نظـره قليلـة الأهميـة، وصـدر الـديـوان، وتلقاه القـراء والنقاد يومهـا بالمـزيـد مـن الحفـاوة والتقديـر.

ثم كان وفاء تونس لذكرى شاعرها بإصدار طبعة جديدة من ديوان " أغاني الحياة " عام 1970، وقد أضيف اليها ما عرف من شعر الشابي حتى الآن، ومن بينها ما أسقطه الشاعر نفسه، وهو احدى عشرة قصيدة.

وهذه الطبعة تحوي مائة وتسع قصائد، تبدأ منذ عرف الشابي كشاعر، في الفترة التي تبدأ عام 1923، وهو في الرابعة عشرة من العمر، وتنتهي بعام 1934، العام الذي انتقل فيه الشاعر الى دار الخلود.

وهذه القصائد موزعة على سني هذه الفترة على النحو التالي :

في السنة الأولى : قصيدة واحدة، وفي الثانية : اثنتان، وفي الثالثة : تسع، وفي الرابعة : خمس قصائد، وفي الخامسة : اثنتا عشرة قصيدة، وفي السادسة: ست عشرة ، وفي السابعة ست قصائد، وفي الثامنة : ثماني قصائد، وفي التاسعة : اثنتا عشرة، وفي العاشرة: ثلاث فحسب ، وفي الحادية عشرة : سبع عشرة قصيدة، وفي السنة الثانية عشرة والأخيرة : ثماني قصائد، وذلك بالاضافة الى عشر قصائد أثبتت بدون تاريخ.

ومن هذه الاحصائية السريعة نرى أن ترتيب القصائد في الديوان لم يجر على الطريقة التقليدية التي اعتادها الشعراء حتى ذلك الوقت، وهي تقسيم مجموعات الشعر الى فنون وأغراض، كالنسيب والوصف، والفخر ، والمدح، والرثاء وغيرها، بل لقد جاء ترتيب الديوان ترتيبا تاريخيا مسلسلا،

حسب زمن ميلادها أو حسب تاريخ نشرها، لا ندري (1).

وهذا الترتيب بلا شك يعين المؤرخ الذي يريد أن يتتبع المراحل الفنية وتطورها ونضجها في شعر الشاعر، ومن هنا نستطيع أن نرصد كمية الانتاج ونوعيته من خلال هذا الترتيب الزمني، اذ نراه في السنة الأولى نادرا، ونراه أغزر ما يكون في السنة الحادية عشرة، وفي السنوات الأولى نلاحظ كذلك وفرة انتاجه في شهور الصيف، ولعل ذلك راجع الى ما تتيحه له العطلة الصيفية من فراغ، وقد كان طالبا في الزيتونة ثم في كلية الحقوق التونسية، أما في السنوات الأخيرة فقد كان شعره موزعا على مختلف شهور السنة.

وهذا الترتيب يعطينا كذلك امكانية قياس تدرج الشاعر فنيا، وملاحظة مراحل نضج شاعريته ونموها وتطورها.

فنحن نراه في السنوات الأولى يسير في الدروب المطروقة، والأغراض التقليدية التي يبدأ بها كل شاعر ناشيء، فقصائده الأولى تجري في إطار الحب، والنجوى، والطبيعة، والوصف الساذج، والنقد الاجتماعي اللاذع، وتشيع فيها السآمة، والكآبة، والاحزان والدموع، والتشاؤم، واللوعة، وأحلام الطفولة، وان بدت فيها ومضات من التفاؤل والاقبال على الحياة.

وهذه المرحلة مطبوعة بطابع الأشواق والتطلعات والجموح الذي يغلف فترة الصبا وبواكير الشباب، وهي فترة تحول غير

(1) الثابت عندي من القرائن الخارجية انه تاريخ ميلادها .

مستقـرة . فلـم يخرج الشاعر بعد من إطار التقليـد الـذي تتردد فيه الأفكـار والمعاني والصور المعتادة في عبارات هائمـة، تتناثر خلالهـا المحسنات، ويبـدو فيهـا الميـل الى اظهـار البراعة في استخدام اللغـة لتكوين صور ساذجـة، يتخذ منها الشاعر معرضا لثروتـه اللغويـة، وما يملكـه من مفردات القاموس، ويبرز قدرته علـى استخدامهـا.

ففـي أولـى قصائـده " الغـزال الفاتـن " يقـول :

بـذر الـحـب بـذره ... فـي فـؤادي فـأورقـا

بلـحـاظ نـوافـث ... فجنـى حظـي الشقـا

وسعـى فيـه مهـره ... عـاديا، ثـم أعنقـا

رب ظبـي علـقتـه ... بـالبهـا قـد تقـرطقـا

سحـر اللـب طرفـه ... مـا دهـى الـريق لـو رقى

أو صبـا الصـب صـده ... والـشفـا لـو تـرفقـا

وهي كمـا نرى معـرض للبراعـة، تجري في مـوكب المـوشحات التي تتسم بهـذا اللـون من البراعـة.

ومثلهـا قصيدة " أيهـا الحـب" التي يحشد فيهـا ما يـدل على براعتـه في السـرد وتتابع الألفاظ وترادفهـا، واضطراد الموسيقى لترسـم صـورة سريعـة ولكنهـا قريبـة العمـق :

أيهـا الحـب أنت سـر بلائـي وهمومـي، وروعتي، وعنائي

ونحولي، وأدمعي، وعذابي، وسقامي، ولوعتي، وشقائـي

أيها الحـب أنت سر وجودي، وحياتي، وعزتي، وإبائي

وشعاعي ما بين ديجور دهري، وأليفي، وقرتي، ورجائي

ألفاظ موسيقية راقصة متراصة، لا عناء فيها ولا غناء منها، وما على الناظم الا أن يضع لها الاطار، ثم يطلقها فاذا هي شعر ونغم حلو، ولكن ربما يكون كل ما فيها هو الايقاع وحده.

على أننا نلمح قرب نهاية هذه الفترة تطورا ما، حيث يحاول الشاعر أن يتخلص من أسر الألفاظ ومن البراعة اللغوية، ولكنه يظل واقعا في أسر الموسيقى، يحاول فيها بعض التجديد، فيقع في التناقض بين الحفاظ على النغم التقليدي وبين النزعة التجديدية، ويضطر الى أن يلجأ الى أي تغيير، فلا يسعفه الا اطار الموشحات، حيث يقول في قصيدته " أغنية الأحزان "

غنني أنشودة الفجر الضحوك أيها الصداح
فلقد جرعني صوت الظلام
ألما علمني كره الحياة
ان قلبي مل أصداء النواح غنني يا صاح

* * *

حطمت كف الأسى قيثارتي في يد الأحلام
فقضت صمتا أناشيد الغرام
بين أزهار الخريف الذاوية
وتلاشت في سكون الاكتئاب كصدى الغريد

* * *

كف عن تلك الأغاني الباسمة أيها العصفور
فحياتي ألفت لحن الأسى
من زمان قد تقضى، وعسى
أن يثير الشدو في صمت الفؤاد أنة الأوتار

وفي نهاية هذه المرحلة يكون الشاعر قد تعب من معاناة التجديد لمجرد التجديد، فيلجأ مباشرة الى المعري يستعير منه الحكمة، والفكرة، والصورة في مقطوعته " قالت الأيام " :

يا أيها السادر في غيه يا واقفا فوق حطام الجباه
مهلا ، ففي أنات من دستهم
صوت رهيب سوف يدوي صداه

لا تأمنن الدهر اما غفا في كهفه الداجي، وطالت رؤاه
فان قضي اليوم وما قبله ففي الغد الحي صباح الحياه
يأيها الجبار لا تزدري فالحق جبار طويل الأناه
يغفى وفي أجفانه يقظة ترنو الى الفجر الذي لا تراه

ثم تنضج عواطف الشاعر وتتركز، وتسير أدواته الفنية نحو الاكتمال، فتستبين شخصيته بما فيها من تشاؤم، وحزن، وانطواء، وتتضح صوره، ويصبح لشعره معجم خاص، تصنعه عاطفته المتوهجة، بعد أن نسي ألفاظ القاموس التي كان يدخرها، ويجرب براعته في استعمالها، وبذلك أصبح الاطار الفني طوع الفكرة الناضجة والعاطفة المركزة.

يبدو ذلك في قصائده " بقايا الخريف "، و " أغنية الشاعر "، و " في فجاج الألـم "، و " مناجاة عصفـور "، و" الى الموت " وما يتلوها، حيث يركز الشاعر على معانيه التي ابتكرها ، وألفاظه التي اشتقها، وهنا يقلع عن الجري وراء التجديد، وهنا أيضا يتسلـل التجديد الى شعره عفوا، وبلا كبير معاناة ولا تكلف، وبذلك يكون طبيعيا، لأن التجديد في طبعه وليس بالتصنع.

ويكاد الناظر في ديوان " أغاني الحياة " يقطع بأن هذه المرحلة القلقة تنتهي بهذه الأبيات من قصيدة " صوت تائه " :

يأيها الساري لقد طال السرى حتام ترقب في الظلام نجوما
أتخال في الوادي البديع المرتجى هيهات لن تلقى هناك مروما
سر ما استطعت فسوف تلقى مثلما خلفت ممشوق الغصون حطيما

هنا تنتهي هاته المرحلة لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الشاعر وفنه، وليس معنى ذلك قيام حد حاسم يفصل بين المرحلتين، فمراحل الحياة متداخلة ومتفاعلة، وحياة الفنان — كحياة كل انسان — متدفقة كأمواج النهر، ولكن الدارس يستطيع أن يلمح في فترة من فترات حياة الفنان غلبة سمات معينة، يمكنه منها أن يضع علامات على طريق هذا الفنان، يقيس بها مدى التطور — أو الانتكاس — في مراحل فنه، فهناك تدرج قد يكون بطيئا وقد يكون سريعا، قد يكون واضحا وقد يكون غائما، قد يكون قليلا وقد يكون كثيرا، لكنه ملحوظ على كل حال.

ومن هنا نستطيع أن نتتبع المرحلة التالية في حياة الشابي وفنه، فالى اللقاء مع المرحلة الثانية من شعر الشابي.

ـ المرحلـة الثـانيـة :

إذا كنا قد وجدنا في شعر الشابي سمات رومانتيكية حادة في المرحلة الأولى من حياته الفنية، ورأيناه يحبو نحو التجديد الحقيقي، وتتسلل الى شعره ملامح جديدة، فإننا نلحظ في المرحلة الجديدة من شعره سمات تقربه من النضج، وتجعل منه شاعرا متميز القسمات ، متفرد الشخصية.

في هذه المرحلة وجد الشاعر نفسه ، واهتدى الى النغمة الصحيحة، ففي قصائده : " نشيد الأسى "، و " قلت للشعر"، و " يابن أمي "، و " أغاني التائه " بدايات تختلف قليلا أو كثيرا عن شعر المرحلة الأولى الذي ألممنا به سابقا.

ففي هذه القصائد وتواليها نضج أكثر في العبارة والصورة والفكرة، وتركيز أكثر في العاطفة ووحدتها الواضحة، وانطلاق من قيود التجربة التي خاضها ليصبح شاعرا مجددا وأصيلا.

نحن نحس بشيء جديد فعلا حينما نستمع الى قصيدته " نشيد الأسى " التي يقول فيها :

ما للمياه نقية حولي وينبوعي مشوب ؟ ؟
ما للصباح يعود للدنيا وصبحي لا يؤوب ؟

ما لي يضيق بي الوجود وكل ما حولي رحيب ؟

... ...

مهما تضاحكت الحياة فإنني أبدا كئيب
أصغي لأوجاع الكآبة والكآبة لا تجيب
في مهجتي تتأوه البلوى ويعتلج النحيب
ويضج جبار الأسى وتجيش أمواج الكروب
إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب

فهنا تتركز العاطفة وتتحد ، وتتكامل الصورة التي ترسم لنا تبرم الشاعر بالحياة، ويأسه منها، والانسياق وراء أحزانه، وتتواءم الايقاعات مع أحزان الشاعر، ففيها الحدة، وفيها النبرة العميقة التي تنقل الى القاريء احساسا عميقا بالألم والاكتئاب والكروب.

وفي قصيدته " قلت للشعر " مناجاة شخص ينطوي على نفسه، ويطوي جوانحه على أحزانه، منعزلا عن الناس، لا يجد من يناجيه الا شعره الذي يعايشه، ويقاسمه آلامه ومسراته، فهو سلوته الذي يشاركه عنت الدهر، ويسري عنه قسوة الأيام :

أنت يا شعر قصة عن حياتي أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر — ان فرحت — أغاريدي، وان غنت الكآبة عودي
أنت يا شعر كأس خمر عجيب أتلهى به خلال اللحود

أتحساه في الصباح لأنسى ما تقضى في أمسي المفقود
وأناجيه في المساء ليلهيني مرآه عن ظلام الوجود
أنا – لولاك – لم أطق عنت الدهر ولا فرقة الصباح السعيد
أنت ما نلت من كهوف الليالي وتصفحت من كتاب الخلود

وفي قصيدته " يابن أمي " يخاطب في الانسان حريته التي هي هبة الله، ويهيب به ألا يتخلى عنها، وفيها تتمثل الطلاقة والانسياب والرؤى المجنحة، وتعميق جوانب الصورة بالإلحاح عليها، والخلاص من قيود الصنعة الى حد كبير:

خلقت طليقا كطيف النسيم ، وحرا كنور الضحى في سماه
تغرد كالطير أنى اندفعت، وتشدو بما شاء وحي الاله
وتمرح بين ورود الصباح، وتنعم بالنور أنى تراه
وتمشي – كما شئت – بين المروج وتقطف ورد الربا في رباه
كذا صاغك الله يابن الوجود، وألقتك في الكون هذي الحياة
فمالك ترضى بذل القيود، وتحني لمن كبلوك الجباه ؟
وتسكت في النفس صوت الحياة القوي اذا ما تغنى صداه
ألا انهض، وسر في سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياة

بهذا التحرر وهذا الانطلاق ، وبهذه الدعوة المجلجلة الى التمرد ينطلق الشاعر ليمجد الانسان الذي لا يراه مدينا لأحد، وليس ابن أحد، ولكنه " ابن الوجود ".

وهكذا يسير الشاعر ، صاعدا من قمة الى قمة، فيرق شعره، ويعذب، ويقوى، ويتماسك، وتتمثل فيه الثورة، حتى يصبح

هو نفسه بين عشية وضحاها قمة من القمم في الشعر العربي المعاصر.

وإذا كان قد برز في هذه الفترة من ثلاثينات هذا القرن شعراء كثيرون في مصر وفي بلدان الشرق العربي، خضعوا لنفس المؤثرات التي خضع لها الشابي، وتشربوا دعوة التجديد التي دعت اليها مدرسة الديوان، وشاركوا في مسيرة جماعة أبولو، وأصبحوا عصارة لهذا التجديد — فإن الشابي يتميز بلون منفرد عن هذا الرعيل من الشعراء المجددين، يتميز بعذوبة الآراء في شعره، بانسياب موسيقاه، بتخير ألفاظه، بتلوين صوره، بالتعبير المباشر عن عواطفه الحزينة.

ان حرارة العاطفة، ودفء الكلمة، ومتانة النسيج، ورقة النغم، وجدة الصورة قد أصبحت أكثر وضوحا في شعر الشابي، تميز بها بين شعراء جيله، وبها استطاع أن يسيطر على قاريء شعره، وأن يفتح مغاليق القلوب العربية بأيسر مما استطاع أي شاعر آخر.

فحينما نقرأ قصائده: " صلوات في هيكل الحب "، و " أراك "، و " قلب الأم "، و من أغاني الرعاة "، و " الصباح الجديد " — تهتز جوانحنا طربا، وتكاد تشف، وتطير مع أخيلة الشاعر المجنحة، وموسيقاه الراقصة، ونحن نتذوق جرس الألفاظ التي تشكل نسيجا شفافا ومتماسكا لصورة بديعة تصنعها ريشة فنان موهوب.

وحينما نقرأ " حديث المقبرة "، و " في ظل وادي الموت "، و " الجنة الضائعة "، و " السعادة " — نأسى مع الشاعر على الصورة القاتمة الحزينة التي يلـون بها حواشي الحياة، ويعدينا بتشاؤمه، ويقنعنا بفلسفته التي ترفض الحياة.

وفي قصيدة " ارادة الحياة " بالذات نحس الشاعر بطلا من أبطال الأساطير، يحطم القيد، ويثور على الضعف، ويكاد يهز الدنيا بزئيره، ويستثير الكائنات من حوله، يدعوها الى القوة بكامل معانيها، ولهذا أصبحت أشهر قصائده التي تتردد بقوة واعتزاز في أسماع العالم العربي.

وبمثل قصائد " حديث المقبرة " ، و " ارادة الحياة "، و " تحت الغصون "، و " فلسفة الثعبان المقدس " — يقدم الشاعر مشاركة لها قيمتها في الشعر القصصي، وفي اللون الحواري بصفة خاصة، حيث يجري الحوار الجذاب المركز الهادف الى تكوين الفكرة المقنعة من أقرب طريق، ويشوق القارىء الى المزيد، ويجعله يسلم لمنطق الشاعر في يسر وسهولة.

أما موقف الشاعر من شعبه فيشكل قضية تختلف فيها أوجه الرأي : هل هو كاره لشعبه، يجاهره العداء، ويحقره ويزدريه، ولا يعترف أنه من بين شعوب العالم جدير بالحياة والحرية والتقدم؟ هل يبادل الشعب عداء بعداء وإهمالا بإهمال ؟ هل ينقم على شعبه ما جرعه من مرارة الحرمان والجحود ؟

كل هذا يدور في خلد قاريء شعر الشابي، وخاصة قصيدتيه : " الى الشعب "، و " النبي المجهول ".

لكن المتأمل فيما وراء الالفاظ يجد الشابي أحرص ما يكون على حرية شعبه وعلى تقدمه، الا أنه حينما يثور على الرجعية والجمود والتخلف لا يجد غير الشعب من يتوجه اليه بشرف الخطاب، أو من يوجه اليه العتب، انه في الظاهر يعنف بالشعب، ويواجهه باللوم، لكنه في الواقع يشكو اليه، ويستعديه على كل النقائص وكل المعوقات، وكل عوامل التخلف، ويصارحه مصارحة رائعة وفدائية وحريصة على حرية الشعب ومستقبله وتقدمه ولكن بطريقته الخاصة، وبأسلوبه الاستنهاضي المثير، لا يتملق، ولا يداجي، ولا يسير في الركاب، وهو الذي يستحث شعبه في قصيدته " ليت شعري " التي يقول فيها :

يا بني الأوطان هبوا فلقد طال الوجوم
وانهضوا نهضة جبار بعزم مستقيم
لست أبغي نهضة العاجز يتلوها الحسوم
ليت شعري: هل سحاب الجهل تذروه العقيم
فترى الأعين بدر العلم قد شق الغيوم
ليت شعري يا بلادي هل تصافيك العلوم

أما تشاؤم الشابي فهو تشاؤم الرومانتيكيين الثائرين على الحياة، الطامحين الى الكمال في كل شيء، وهو ينتهي دائما باللجوء إلى الطبيعة، يغنيها، ويستمع الى ألحانها ، بين

خرير الجداول، وعبير الصنوبر، وسقسقة العصافير، وهو يغني معها في قصيدته " أحلام شاعر "، حيث يقول :

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا سعيدا بوحدتي وانفرادي
عيشة للجمال والفن أبغيها بعيدا عن أمتي وبلادي
وبحسبي من الأسى ما بنفسي من طريف مستحدث وتلاد
وبعيدا عن المدينة والناس، بعيدا عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك، ومن ذاك الهراء العادي
أين هو من خرير ساقية الوادي، وخفق الصدى، وشدو الشادي
وحفيف الغصون نمقها الطل وهمس النسيم للأوراد
هذه عيشة تقدسها نفسي، وأدعو لمجدها وأنادي

وفي هذا المجال يقول من قصيدة له بعنوان " السعادة " :

وإن أردت قضاء العيش في دعة ... شعرية لا يغشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم ... وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا ... في عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاما مغردة ... ان الحياة وما تدوي به حلم

فهو يسأم حياة الناس وما فيها من لغو وفضول، وما يغشيها من زيف، ويلجأ الى الطبيعة يحتمي بها، ويعايشها، ويناجيها، على طريقة أشبه ما تكون بنزعة جبران، فالطبيعة — كما يقرر روسو — هي الأم الرءوم، وهي المعلم الأول.

والطبيعة عند الشابي لوحة رائعة لا تشوبها شائبة، ولا يحف بها كدر، وكل مافيها حلو محبب، وأروع ما فيها أنها ترتد به

الى الطفولة بما فيها من جمال ، وكل ما في الطفولة جميل، وأجمل ما فيها عبثها ولهوها وسذاجتها المحببة :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الأنيق، وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
ونظل نعبث بالجليل من الوجود وبالحقير
بالسائل الأعمى، وبالمعتوه والشيخ الكبير
بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعة، بالحمير
بالعشب، بالفنن المنور، بالسنابل، بالسفير
بالرمل، بالصخر المحطم، بالجداول، بالغدير

هذه هي الحياة الطبيعية التي يأوى اليها الشاعر كلما أجهده المسير في دروب الحياة، وكلما ثارت بأزماتها، وأثقلت كاهله تبعاتها، خاصة وقد حفت بحياته الأمراض، وغربة الروح، ومكابدة الرجعية التي عاشتها بلاده، قبل أن تصبح في عداد البلاد الحرة المناضلة الساعية الى التقدم.

ـ المرحلـــة الثالثـــة :

في عرضنا لشعر الشابي ألممنا بمرحلتين من حياة الشاعر وفنه ، والآن نلم بالمرحلة الثالثة التي كونت الصورة النهائية لشعر الشابي وبلورت شخصيته.

ونود أن نشير هنا الى أن الباحث التونسي أبا القاسم كرو مؤرخ حياة الشابي ومتتبع آثاره قسم شعر الشابي إلى مرحلتين زمنيتين : مرحلة ما قبل العشرين، ومرحلة ما بعد العشرين، لكنه لم يقدم لنا أساسا فنيا أو تاريخيا يبرز هذا التقسيم (1).

ونحن هنا نعتمد على ما لمسناه من ملامح فكرية وفنية لكل من المرحلتين السابقتين، ثم على تقرير الشابي نفسه وهو يعبر عن احساسه بأن شعره يدخل طورا جديدا في مرحلة أخيرة من حياته.

فلقد مرت به أزمة نفسية في نهاية عام 1933 ، بدأت على أثرها مرحلة جديدة في حياته نستطيع أن نسميها مرحلة القوة.

يقول الشابي في احدى رسائله الموجهة الى صديقه محمد الحليوي في التاسع عشر من ديسمبر عام 1933 : " الفرق

(1) التقسيم الذى ذهبت اليه ، ما زال هو الاصح .. وهو قائم على أساس تاريخى وفنى أشرت اليه فى مكانه ، وهو ما ذهب اليه المؤلف هنا .. لكنه حاول ايجاد قسم ثالث مع انه سيعترف بتداخل المراحل وصعوبة التمييز بينها .

بيني وبين نفسي الأولى أني كنت أتقبل آلام الحياة وأتحسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامع، أما الآن فانني ألقاها ببسمة الساخر، ونظرة الحالم المنتشي بجمال الوجود، وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت بعين دراهم، ولعل جمال الطبيعة هناك كان له الأثر الأكبر في تلوين نفسي بهذا اللون الجديد، كما أن مصيفي هذا العام، وما رأيته فيه من صور الطبيعة الرائعة قد أكمل هذا التطور ونماه، أما الان فانني أشعر بانقلاب عميق قوي في نفسي كل القوة، وستدرك هذا التطور في نفسي حينما تطلع على قصائدي الجديدة، وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد "الصباح الجديد"، وقصيد "نشيد الجبار"، وهو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد».

ويجيبه الحليوي معلقا على قصيدة "الصباح الجديد"، قائلا: "اني لأحيى بهذا القصيد طورا جديدا دخل فيه شعرك، فبعد التشاؤم القاتم حل المرح والابتهاج، وبعد الليل والظلمة أطل الصباح الجديد، وأنت في طريقك الى التسامي الى قمة الفن السامقة، لأن التشاؤم الصادق ينتهي في الغالب بالفرح الصوفي، والبهجة الروحية.

ونحن قد لاحظنا في الحلقة الأولى من هذه الدراسة أن شعر الشابي بلغ أوج غزارته وأوج قوته في عام 1933، الذي حدثت فيه فترة التحول التي يتحدث عنها الشاعر.

واذا تتبعنا انتاج الشاعر في الفترة التي أحس فيها بهذا التطور منذ قصيدته " الصباح الجديد " نجد شعره يتسم بالمرح والانطلاق والمغامرة، والتفاؤل، وقوة الارادة، والاقبال على الحياة، ويتخلى فيها عن الملامح الرومانسية المتسمة بالهروب من المجتمع، واللجوء الى الطبيعة، والانزواء عن الحياة والأحياء، والعتب على المجتمع ، والحساسية المفرضة التي تبحث عن الكمال المطلق في دنيا الناس.

وتصبح صور الشاعر واقعية وعميقة، وبعيدة عن الرمزية الضبابية، كما تصبح موسيقاه أكثر اتزانا، وقد تخلت عن الصخب المجلجل والرقة المتهافتة.

فقصيدته " الصباح الجديد " تفيض بالتفاؤل الذي يمحو نزعة تشاؤمه ليبدأ مع الحياة في الظاهر رحلة جديدة، ينشر فيها شراعه، ويغامر في بحر الحياة الجديدة بسواعد قوية، وإرادة تتحدى الأيام والآلام، وتنتصر على بأساء الحياة وضرائها لقد رضي عن الحياة، ورضيت عنه الحياة، فانطلق يغني لها :

اسكتي يا جراح	واسكني يا شجون
مات عهد النواح	وزمان الجنون
وأطل الصباح	من وراء القرون
في فجاج الردى	قد دفنت الألم
ونثرت الدموع	لرياح العدم
واتخذت الحياة	معزفا للنغم

أتغنى عليه في رحاب الزمان
وأذبت الأسى في جمال الوجود
ودحوت الفؤاد واحة للنشيد
والضيا والظلال والشذا و الورود
والهوى والشباب و المنى والحنان

في فؤادي الرحيب معبد للجمال
شيدته الحياة بالرؤى والخيال
فتالوت الصلاة في خشوع الظلال
وحرقت البخور وأضأت الشموع

ان سحر الحياة خالد لا يزول
فعلام الشكاة من ظلام يحول
ثم يأتي الصباح وتمر الفصو ل
سوف يأتي ربيع ان تقضى ربيع

من وراء الظلام وهدير المياه
قد دعاني الصباح وربيع الحياة
يا له من دعاء هز قلبي صداه
لم يعد لي بقاء فوق هذي البقاع

الوداع ... الوداع يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي في الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع ... الوداع

وقد كانت هذه القصيدة في الواقع تمهيدا رائعا لقصيدته " ارادة الحياة "، التي دوى مطلعها، وما زال يدوي في سمع العالم العربي، وهذا المطلع يمثل اللحن المميز لسمفونية الثورة، ولما وراءها من معارك الصحوة، والدعوة الى القوة الغلابة التي لا تقهر، وقد أصبح بمثابة الشعار والدستور الذي انطلق الشعب العربي تحت ندائه ليحقق حريته وذاتيته، لكن ما وراء الشعار أروع وأقوى :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفعة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات، وحدثني روحها المستتر
ودمدمت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر
اذا ما طمحت الى غاية لبست المنى، وخلعت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب، ولا كبة اللهب المستعر
ومن لم يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
فعجت بقلبي دماء الشباب، وضجت بصدري رياح أخر
وأطرقت أصغي لقصف الرعود، وعزف الرياح، ودمع المطر؟
وقالت لي الأرض لما سألت : أيا أم هل تكرهين البشر؟
أبارك في الناس أهل الطموح، ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشي الزمان، ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت مهما كبر

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر
ولولا أمومة قلبي الرؤوم لما ضمت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة من لعنة العدم المنتصر

وهو كذلك في قصيدته " نشيد الجبار "، يصارع الحياة صراع الجبابرة، ويتحدى القدر، ويصر على النصر، وسط ضغوط الازمات الصحية وصراعات الأزمات النفسية ، لكن ذلك لا يعوق صوته أن يجلجل وسط الأعاصير :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب، ولاأرى ما في قرار الهوة السوداء
وأسير في دنيا المشاعر حالما . غردا، وتلك سعادة الشعراء
أصغى لموسيقى الحياة ووحيها وأذيب روح الكون في انشائيء
وأصيح للصوت الالهي الذي يحيى بقلبي ميّت الأصداء
وأقول للقدر الذي لا ينثني عن حرب آمالي بكل بلاء
لايطفيء اللهب المؤجج في دمي موج الأسى وعواصف الأرزاء
فاهدم فؤادي ما استطعت، فانه سيكون مثل الصخرة الصماء
لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا وضراعة الأطفال والضعفاء
ويعيش جبارا يحدق دائما بالفجر .. بالفجر الجميل النائي

هذه هي النماذج التي يقرر الشابي أنها تحمل ملامح المرحلة الجديدة في شعره، وهي ولا شك بارزة فيها بوضوح.

لكن هذه المراحل في حياة الفنان — كما أسلفنا — تتداخل

وتفاعـل، فلا ينتقـل من مرحلـة الى أخرى فجأة، وان ظـن ذلـك، ولـهذا فأنـا أعتقـد أن هذه المـلامح ظهـرت في شعـر الشـابـي قبـل تلك الفترة الزمنيـة التي حددهـا ، ومن أشهـر القصائد التي تنتمي الى هذه الفترة والتي برزت فيها هذه الملامح الفنيـة قصيدتـه " صلوات في هيكـل الحب "، التي تنساب فيها المـوسيقى الراقصـة، وتتتابـع فيهـا الصـور السريعـة، وتنضـج العاطفـة، وإن كان الخيال الرومانسي مازال يغرق الصورة فـي تياره، فيجعـل من الحبيبـة طيفا ملائكيا ليـس من دنيا البشـر(1) :

عذبة أنت، كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء، كالورد، كابتسام الوليد
يا لهـا من وداعة وجمـال وشبـاب منعـم أملـــود
يا لهـا من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقى العنيـد
أنت... ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمـــق وجمال مقـدس معبـود
أنت ... ما أنت ؟ أنت فجر من السحر تجلى لقلبي المعمـود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتهتز رائعات الـورود
وتهب الحياة سكرى من العطر، ويدوي الوجود بالتغريـد
فيك شب الشباب وشحه السحر، وشدو الهوى، وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغاني الوجـود
خطوات سكرانـة بالأناشيـد، وصوت كرجع نـاي بعيـد
وقـوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعـــود

(1) هنا يعود المؤلف فيقرر ما ذهبنا اليـه فى دراستنا وتقسيمنا لشعر الشابـى .

كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود
أنت ... أنت الحياة في رقة الفجر، وفي رونق الربيع الوليد
أنت ... أنت الحياة، كل أوان في رواء من الشباب جديد
أنت دنيا الأناشيد، والأحلام، والسحر، والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن، وفوق النهى وفوق الحدود

هذه هي الحبيبة التي جمع لها الشاعر كل عناصر الطبيعة، المتآلفة والمتناقضة، وسواها طيفا لا وجود له الا في خيال الشاعر، ولكن ماذا يقول فيها العالم المادي وهو يناجيها :

يابنة النور انني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود

ولا نترك هذه الزهرة التي نشقنا بعض عبيرها الا الى زهرة أنضر، هي " من آغاني الرعاة " :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة والربا تحلم في ظل الغصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور في تلك الفجاج الدامسة
أقبل الصبح جميلا يملأ الأفق بهاه فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحي وغنى للحياة فأفيقي ياخرافي، وهلمي ياشياه
واتبعيني ياشياهي بين أسراب الطيور واملأي الوادي ثغاء ومراحا وحبور
واسمعي همس السواقي، وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يغشيه الضباب المستنير
واقطفي من كلأ الأرض ومرعاها الجديد
واسمعي شبابتي تشدو بمعسول النشيد

نغم يصعد من قلبي كأنفاس الـورود
ثم يسمو طائرا كالبلبل الشادي السعيد
لك في الغابات مرعاك ومسعاك الجميل
ولي الانشاد والعزف الى وقت الأصيـل
فاذا طالت ظلال الكلأ الغض الضئيـل
فهلمي نرجع المسعى الى الحي النبيـل

وهي لوحة يتجلى فيها سحر الطبيعة وتأثيرها على الشاعر بلا تزييف، وهي نابضـة بالفرحـة والتفاؤل والإقبال على الحياة المرحة السعيدة ولكنهـا أمنية لطيفة، حيث تمتزج فيها أحاسيـس الشاعر، فلا يدري أيسمعهـا أم يراها، أم يحتسيها، ولكن الذي يدريه أنـه يعيشهـا.

الواقع أن اقبال الشابي على الحياة مثل انصرافه عنها، وتفاؤله كتشاؤمه، وأحزانه كأفراحه، ورومانسيتـه كواقعيته، كلها حالات ومراحل تنضج بفن الشاعر، وتفصح عن عبقرية أصيلة، لا تخونه ولا تتخلى عنه (1).

نرجو بهذه اللقطات الخاطفـة أن نكون قد قدمنا قدر مـا استطعنـا جانبا من جوانب حياة هذا العبقري العربي الـذي قصرت أيامـه في هذه الـدنيا، واستطالت ظلالها لكنه لم يغادرها الا بعد أن سجل أروع الآيات في سجل الخلود، وترك في أمته ذكرى معطرة بالكفاح، ستظل تملأ الأفـق العربي بأنسام العبقريـة، وأصداء الحـريـة، والأمـل في حياة أفضـل، ومستقبـل أكثـر أمنا وحرية ورخـاء وسـلامـا.

---

(1) هذا أيضا ما ذهبنا اليه، هناك حالات تعترى الشاعر وليست أطوارا فاصلة.

الفصل الثاني

علي الدوعاجي ... قصاصًا ورحالة

تمهيـــــد

علي الدوعاجي قصاص ورسام وشاعر تونسي، له لون ينفرد به عن بقية القصاصين التونسيين، بل ان لقصصه مذاقا خاصا، يتميز به عن كتاب القصة المعاصرين في أنحاء العالم العربي.

فقصصه – في الغالب – لقطات سريعة، ولمحات طريفة، تدل على روح فكاهية أصيلة في الدوعاجي، كما أن قصصه تحمل في بعض الأحيان طابعا خشنا، يعكس الجموح وراء اللذة، وهو يصور حياة تونس المعاصرة وأخلاق أهلها، وقد هيأ له اتصاله المستمر والعميق بطبقات الشعب ثروة غنية من الصور والأفكار الأصيلة.

وبهذا يعتبره النقاد أبا للقصة التونسية المعاصرة عن جدارة و بدون منازع.

توفي علي الدوعاجي عام 1949 عن أربعين عاما ، وكان قد نشأ في أسرة ثرية متدينة، تملك الأموال والعقارات ، ولكنه فقد والده في سن مبكرة، فعنيت أمه بتربيته، وو فرت له

أسباب الحياة الرغدة، الا أن تعليمه لم يتجاوز المرحلة الابتدائية، حيث قرأ القرآن، وتعلم مبادىء اللغتين العربية والفرنسية.

وأراد علي أن يشتغل بالتجارة، فأبت عليه أمه ذلك، ورفضت أن تمنحه التمويل اللازم لمشروعاته التجارية، وأراد أن يمارس الزراعة، لكن أمه كانت حريصة على أن يواصل تعليمه، ولما اشتد الخلاف بين علي وأمه ترك بيت الأسرة، واشتغل عاملا في متجر أقمشة، ثم ترك العمل في المتجر، وهام على وجهه، وأراد أن يحقق لنفسه حياة مستقلة، واختلط بطبقات الشعب الكادحة، وعايش الفقراء، وأحس بقسوة الحياة وعذابها، وعاش ضائعا مقهورا بعد وفاة أمه.

واجتذبه الفن والأدب، فبدأ يكتب المسرحيات والقصص والأشعار، عندئذ دفعته الحاجة الفنية الى مواصلة القراءة والاطلاع، والتردد على المجالس الفكرية والأدبية، والاتصال بمشاهير أدباء عصره و شعرائه وصحافييه، مثل أبي القاسم الشابي الشاعر، والطاهر الحداد الكاتب، ومحمود بيرم التونسي الشاعر الشعبي، وعبدالرزاق كرباكة الكاتب المسرحي، وزين العابدين السنوسي محرر مجلة " العالم الأدبي " التي شارك الدوعاجي في تحريرها، كما عمل في تحرير بعض الصحف الأخرى، وأصدر مجلة أدبية خاصة به، واندمج في مجموعة الأدباء البوهيميين، وقد أوحت اليه حياتهم بلوحات فنية رائعة.

كذلك تتلمذ الدوعاجي على القصة الفرنسية والأمريكية

التي وسعت آفاقه الفنية، وغذت موهبته بالكثير من موضوعاتها وحبكتها الفنية، مما جعله يصطنع الطريقة القصصية التي يسمونها "عين الكميرا"، لكنها لم تفقده شخصيته العربية التونسية، بل استطاع هو أن يطوع هذا الفن لظروف البيئة العربية، بالاضافة الى أنه كان يؤمن بروح البحث العلمي في الميدان الجمالي، كما كان يؤمن بالأصالة في القصة، ولهذا فهو لا يستعير لنفسه صورة ولا مضمونا من البيئات الأجنبية عن بيئته، ولقد كشفت له الحياة البوهيمية الخاملة عن طبيعة المجتمع التونسي، فصوره في قصصه ومسرحياته في صور معقدة ، وأحيانا مؤلمة.

والدوعاجي يتخذ القصة وسيلة لدعم كفاح المكافحين، وحفزهم على العمل والصمود في وجه استغلال المستغلين، والتسرية عن قسوة الحياة وعنت المستعمر.

وللدوعاجي رأي في القصة، يحمله هذا التعريف الذي وضعه لها حيث يقول : "إن القصة في حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ، وعلى شذوذه هذا لا يستغربه القاريء ولا يستنكره، ومهمة كاتب القصة عرض الواقع البحت بكلمات واضحة نيرة، وعليه أن يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة، وعن وصف شعوره الشخصي، وعن الوعظ الثقيل".

وهو يطبق هذه الآراء في قصصه، اذ نجد فيها الكثير من الشخصيات الشاذة، والصور النادرة الطريفة، ويعرضها بلا

تـدخـل ولا تعقيب، وبطريقـة قد تبدو سلبيـة.

وهو وإن كان يستنكر تدخل الكاتب وتعليقـاتـه والحديث عن شعـوره الشخصي في داخل القصـة، الا أن قصصه مفعمـة بالنقد الاجتمـاعي غيـر المباشر، وتلك خصيصـة الفنـان الأصيل.

والدوعاجي يمثـل بسلوكه وبفنـه المجتمـع التونسي في أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات من هذا القرن، وهو حامـل لـواء الأدب القصصي التونسي المعاصر، ومنزلتـه في فـن القصـة تضارع منزلـة أبي القاسـم الشابي رائـد الشعـر التونسي المعاصر.

والدوعاجي متعـدد الجوانب والمواهب الفنيـة، فهـو رسام وشاعـر وصحفي وممثل ومخرج، وكاتب قصة ومسرحيـة. وهو مؤمن بفنـه، مخلص لأدبـه ولأفكاره الإصلاحيـة، وآرائـه التحـررية، ومعتقداتـه التـقدميـة.

وفي حياتـه القصيرة نسبيـا قدم للأدب التونسي المعاصر أكثر من مائـة وستين تمثيلية، وترك أكثر من ستين مسرحيـة، عدا المسرحيـات التي مثلتهـا له الفرق المسرحيـة المختلفـة، وهي تزيد على خمـس عشرة مسرحيـة، اشترك هو بنفسه في تمثيـل بعضهـا، كما اشترك في إخراج البعض الآخر، وكتب أكثر من خمسمائـة أغنيـة شعبيـة تونسيـة، وترك عديـدا من لوحاتـه الابتداعيـة الـرائعـة.

علي الدوعاجي ...
القصاص

ها نحن نلتقي بعلي الدوعاجي القصاص التونسي من خلال مجموعة قصص صغيرة ، لا تتجاوز صفحاتها المائة والستين، أصدرها نادي القصة التونسي بعنوان "سهرت منه الليالي"، نقرأ فيها ست عشرة قصة قصيرة جمعها النادي من بطون الصحف التي كان الدوعاجي ينشر فيها قصصه، صدرت بكلمة النادي، كتبها محمد العروسي المطوي باسم النادي، وقدمها عزالدين المدني بمقدمة تحليلية.

وعنوان المجموعة مأخوذ من عنوان احدى قصص المجموعة، وعدا القصة الأولى شبه المترجمة، والقصة الأخيرة شبه الخيالية - فان بقية قصص المجموعة منتزعة من البيئة التونسية المحلية، ولكنها مرسومة على خلفية انسانية عميقة وعريضة، ومفعمة بالاحساس الصادق بمشاكل الانسان المعاصر الممزق المطحون تحت أثقال الحياة، والذي يكافح باصرار ليخرج من واقع حياته المأسوية الى حياة أفضل، ولا يخفف من وقع المأساة الانسانية ومواقفها المحتدمة الا سخرية الكاتب الذي ينتزع الفكاهة من بين ثنايا الأزمات، وينقلها في عبارات سريعة ورشيقة تهون من سخونة المواقف المأسوية.

على هذا النمط تجرى قصة « جارتي » التي تصور انسانا ضائعا، يثقل كاهله أن يجد إيجار مسكنه المتواضع، ويلاحقه صاحب البيت صباح مساء، وتلوح له بارقة أمل للخروج من فاقته في امرأة تنزل بالمسكن المجاور، وتتظاهر بالثراء، فيبدأ هو بالقاء الطعم وهو يعتقد أن الحياة ابتسمت له، فيستدين ويستدين ليقدم لها الهدايا، ثم يصحو أخيرا على الواقع وإذا هي .. لا شيء، ثم تتركه وترحل فجأة، وتخلفه للفقر والديون وصاحب البيت وجها لوجه.

ومن روائع قصص هذه المجموعة قصة « الركن النير »، وهي تصوير لاوساط الأدب والفن والصحافة في تونس في فترة الأربعينات، وفيها نرى رب أسرة فقير، تطلب ابنته الصغيرة في ليلة العيد خروفا تلعب معه كما يفعل أبناء الجيران، وهو لا يملك ما يلبي به رغبة ابنته المسكينة سوى دموعه، فيخرج الى المقهى ضيق الصدر، ويجيء مجلسه بالقرب من صحفي يحس بضيقه وزفرات صدره ويرى الدموع في عينيه، وكان بين هذا الصحفي والراقصة المعروف ود مفقود جعله يخصص في مجلته الأسبوعية عمودا ثابتا يشهر فيه بهذا الراقصة، ويصفها بالبخل وبرودة القلب.

ويجازف الصحفي، ويجرب تجربة قاسية بآمال هذا الرجل يسخر من الراقصة فيرسله إليها ببطاقة توصية، علها تساعده في تحقيق أمنية ابنته أو ينكشف بخلها أمام شاهد جديد، وتسهم الراقصة في شراء هذا الخروف الذى سيدخل السرور على قلب

الصبية المسكينة ليلة العيد، ولندع بطل القصة يحكي وقائع قصته :

« كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعي الزر المنبه، وفتح الباب حارس مغربي.. غاب قليلا، ورجع تصحبه صاحبة البيت.. سألتني عما أريد، فأجبتها بالكلمة الواحدة التي تملأ قلبي وفمي : « أريد خروفا ».. ظهرت عليها علائم الدهشة، وكأنها استغربت أن يطلب خروفا من قينة ، وبين التخت والمسلخ ما بنيهما من بعد ، ولكنها طلبت مني أن أتبعها، فتبعتها الى صالون فخم.. ثمين الرياش .. جلست على مقعد، واتكأت هي على طاولة .. وقصصت عليها خبري وخبر الصبية.. وكانت تنظر الى الأرض، فما رفعت رأسها حتى تبينت من خلال دموعها أنها تبكي بكاء هادئا مثلي ، وقالت ؟ :

— هيا ننزل الى الحديقة.

نزلنا الى حوش خلف الكرمة ، به أشجار، وفيه خراف قائمة، وأخرى رابضة، في جملتها ما ينوف على العشرة.. ودخلت بينها، تجس ظهر هذا، وتربت على رأس هذا، وتدفع آخر برجلها.

— ها هو ذا الذي يصلح لأطفالك الصغار ، سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية، وسيباهون به صبيان الحارة.

تقول هذا وهي تمسح بمنديلها دمعا تساقط على خدها.

— أليس هذا رأيك يا أبت ؟

- المرآتي ما ترين يا سيدتي.

- ألم تقل أن ابنتك الصغرى.. كيف سميتها لي ؟ راضية.. لها خمس سنوات، نعم هو ما قلته لي. لتأخذ أيضا هذا العليليش لراضية. سوف يسرها، ألا تجد أنه وديع كبنتك ..

هل هي كحلاء ؟

نعم.. وجميلة كسيدتي، ولو كانت لا يمكن أن تضاهيك جمالا.

- هي أحسن مني الآن.

ثم كأن خاطرة فاجأتها. فسألتني :

- أتسمح لي بمرافقتك الى بيتك ؟ إني أريد أن أرى راضية تقتبل العليليش.

- البيت بيتك، والبنية ابنتك ان شرفت.

- لقد أرسلت في طلب عربة لتقلنا الى راضية .. هاتي حبلا يا سيدة.. يا سيدة.

لا أنسى فرح مفيدة وهي ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها الصغيرتين. ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهي تحتضنه تارة وتقبله أخرى. ولا أنسى فرح الصبية إخوتها وهم يزينون قرني الكبش بكل الرقائق من الألوان.

... الشكر لله الذي أبقى في قلب هذه القينة ناحية بيضاء ناصعة، ينيرها نور الحنان، وهو أبهى الألوان. وأكثرها «لألؤا».

ومن هـذه الروائع كذلك قصة « أمن تذكر جيران بذي سلـم » ، وهي تصوير للعادات الدينيـة ، والاحتفالات بالمولد النبوي ، وحالة التعليـم ، وكيف كانت تبذل له الحوافز من الاموال الموقوفـة ، ثم كيف كان جشع الأفراد يضيع الهدف من هذه الحوافز لولا الحنان الانساني الذي أودعـه الله في بعض القلوب.

ومضمون القصة أن صبيـا من صبية الـكتاب الأذكياء كان الخوف من عقاب المؤدب يعقد لسانـه ، فيتلعثـم عندما يجيء دوره في القراءة مهما كان حافظا ، وجاء يوم المولد النبوي ، وجاء معه موزع أموال الأوقاف ، ومنح كل صبي من صبية الـكتاب نصف ريـال ليستعين به على تجهيـز طعام الموسم الذي يتبارى صبيان الـكتاب في تدبيـره صبيحة المولد ، لـكن المؤدب الجشع اقتطع من نصيب ابراهيم ثلث ريـال عقوبـة لـه بحجـة أنه لا يحفظ القدر الـواجب عليه من الدروس ، وعاد الصبي كسيـرا ، لأنـه لن يستطيع أن يحتفـل بالمولـد كبقية زملائـه ، لـكن ابن المؤدب الذي كان رفيقـا لإبراهيـم أفضى بهذه الواقعـة الى أمه زوجة المؤدب الورعة التقيـة ، وحالما انتهت من صلاة العصر خلف زوجها تسللت الى كيس نقوده فسرقت منه لأول مرة في حياتها خمسة ريالات ، وأرسلت الى ابراهيم فطيبت خاطره ، وأعطته الريالات الخمسـة ، ولمـا أصبح الصباح كان الطعام الذي جاء به إبراهيم أفخم الأطعمـة التي جاء بها بقيـة الصبيـة ، ومن تلك اللحظـة تعلـق قلب ابراهيـم بتلك السيدة المحسنـة ذات القلب الـكبيـر ، لـكنها ماتت بعد عامين من تلك الـواقعـة.

لقد مضى على وفاتها ثلاثون عاما، ومع ذلك فمن المألوف أن يرى الناس ابراهيم على قبر هذه السيدة يوم المولد من كل عام يجلس الى القبر وينشد أمامه « أمن تذكر جيران بذي سلم »، وهو مطلع قصيدة البردة » المشهورة بنفس النغمة التي اعتاد صبيان الكتاب أن يرددوها بها، وبين الحين والحين تتساقط الدموع من عينيه، وفاء لهذه السيدة.

وقصة « مجرم رغم أنفه » مأساة انسان مظلوم أوقفته الأقدار على طريق الجريمة، فاقترفها على الرغم منه دفاعا عن فتاة لم ترع له واجب الوفاء، وهو لا يجد من يستمع الى مأساته، وكأن العالم يصم آذانه حتى عن مجرد الاستماع لهاته المأساة.

وقصة « سهرت منه الليالي » التي سميت بها المجموعة قصة انسانية عميقة، تكشف عن جانب الحنان الإنساني لدى المرأة المحبة لزوجها، فرغم ما تلقاه من سوء عشرته، وقبيح معاملته وشراسته، ورغم الشكوى المريرة من أفعاله، ومن اعوجاج سلوكه وقسوته — لا تستطيع أن تستمع الى نصح خالتها بفراقه، ويغلبها الحنان عليه، فلا تطيق أن يرتفع صوت بالقرب من غرفته ينغص عليه نومه.

أما قصة « نزهة رائقة » فهي تصوير لمعاناة الحياة في رحلة كان المفروض أن تكون ترفيهية، فاذا فيها من المتاعب والمنغصات والمفارقات ما جعلها كارثة يستعاذ بالله من وقائعها، لولا أسلوب الكاتب

في معالجتهـا، وسخريتـه من كل متاعبهـا، وتهكمـه بكـل صعابها، ولولا شخصياتها الـكاريكاتيريـة المحببة التي تقنعك بانها من صميم الحيـاة.

وهذه القصـة رمزيـة، تشيـر الى تفوق الإنسان وانتصاراته في النهايـة على مآسي الحياة، مادام قادرا على التفاؤل، مصرا على أن يهزم كل الصعاب وكل المعوقات بالأمـل والـكفاح.

وشخصيات الدوعاجي كلها شخصيات إيجابيـة متفائلـة، تنتزع الخير من بين عناصر الشر، تعيش حياتها نابضة بالحب، والدوعاجي يجيد تصويرهـا بطريق الاستبطان، لأنها ليست غريبـة عليـه، وهو فنان ماهر، يستطيع بالخطوط القليلـة أن يبرز ملامحها الأصليـة، ويجعلها تنبض بالحرارة والدفء والإيجابيـة.

وهو لا يهتـم بالخطوط التقليديـة، فلا يعمـد الى تأزيم المواقف، ولا يعبأ بتصعيدها الى الذروة، ثم تلمس الحلول، ولـكن قصصه تكاد تكون مسطحة ومع ذلك لا تعدم فيها جانب التشويق التلقائي من خلال أحداثها وأشخاصها.

والشخصيات التي تتحرك في قصص الدوعاجي كلها من الطبقة الكادحة المتفوقة التي تحاول كسر القوقعة، والصعود الى موقع افضل والمؤلف لا يجد عناء في الاهتداء اليها، لانها تقف دائما على طريق قصصه الواقعيـة، وهو يحبهـا، ويحنو على أخطائهـا، ويغفـر لها انحرافاتها.

وصور الدوعاجي صور ساخرة، لأنه مولع بالسخرية من الأحداث ومن الأشخاص، وحتى من نفسه ، وكأن هذه السخرية في طبعه تعويض له عما لقي من مرارة الحياة، ووسيلة للارتفاع فوق أزماتها.

بهذه الموضوعية والواقعية، وبهذا التفاؤل والإيجابية ، وبعمق التصوير وبساطته ، وبالتعبير الرقيق والمركز.. يعتبر علي الدوعاجي أبا شرعيا للقصة التونسية المعاصرة بلا جدال .

علي الدوعاجي ...

الرحالة

للرحلات بين فنون الأدب العربي مكانة مرموقة، ولها نفس المكانة في الآداب العالمية.

ولقد كان كتاب المغرب والأندلس أكثر الكتاب حفاوة بأدب الرحلات في القديم.

فمنذ كتب ابن بطوطة وابن جبير وابن خلدون رحلاتهم انعكست صورة الرحلات على الأدب العربي، وظلت تروع وتبهر، حتى في عصور تخلف الفنون الأخرى في هذا الأدب.

واليوم نجد الأدب التونسي المعاصر يحتفي بهذا اللون أكثر من احتفائه ببقية الفنون الأخرى.

فقائمة الكتب التونسية تحفل بالكثير من كتب الرحلات التي اهتم بها كبار الكتاب، وأعاروها الكثير من الجدية والكثير من المجهود.

ومن أشهر كتاب الرحلات التونسية المعاصرين محمد السنوسي في كتابيه « الرحلة الحجازية »، و « الاستطلاعات الباريسية »، ومحمد بلخوجة في كتبه « سلوك الابريز في مسالك باريس»، و« الرحلة الفاليرية »، و« الرحلة الناصرية »، والمقداد الورتتاني في كتاب « البرنس في باريس »،

ولكل من هؤلاء نزعته ومزاجه الخاص في موضوعه وعرض مشاهد رحلاته، والزوايا التي يلتقطها، لكن علي الدوعاجي ينفرد بين كتاب الرحلات التونسية بلون جديد في كتابه الذي سماه.« جولة بين حانات البحر المتوسط »، اذ يقول في مقدمته : « سوف لا أحدثكم هنا بما اعتمدتموه في كتب الرحلات من ذكر غرائب المتاحف، ونتائج المعامل، وأعماق البحار، وعجائب الطبيعة، وشواهق الجبال، وأعماق الكهوف. كذلك سوف لا أصف الشوارع والميادين والحدائق والعمارات.. لأن رحلتي إنما كانت للتسلية، ولا أطمع من وراء تدوينها الا تسلية القراء، أما اختياري للعنوان « جولة بين حانات البحر المتوسط » فهو تقرير لحقيقة ما قمنا به في جولتنا على موانى البحر الزاهر، فإننا لم نر من هذه الموانـي الا حاناتها ومقاهيها، ولا أحسب الحديث عنها يسئم أحدا أبدا »

لقد بدأ الكاتب هذه الجولة عام 1933، طاف فيها بتوريسكا، ونابلي، وبيره، وأثينا، والدردنيل، واسطنبول، وأزمير، فماذا وجد الكاتب في هذه الموانى غير ما استبعده من مشاهد الرحلات التقليدية، وكيف صور ما رآه بأسلوبه الساخر الرشيق ؟

لقد التقط في هذه الرحلة صورا انسانية عميقة، وخلع على المشاهد الطبيعية من ذات نفسه ومن حيوية فنه ما جعلها تنبض بمكنوناتها.

من بين الشخصيات الرائعة التي قدمها شخصية السيدة المحبة للاستطلاع الشغوفة بمعرفة كل شيء عن كل شيء، والتي سماها

« مدام المعرفة الكاملة »، وكأنها سترشح نفسها يوما لإدارة هذا الكون، وهي تظهر فجأة في أي مكان، وتنقض على أي تجمع، وتملأ على الرحلة كل آفاقها، وكأنها الملح لا يغيب عن أي طعام.

والشخصية الثانية شخصية المدرس المولع بتوزيع المعلومات وتصحيح الوقائع، والتعقيب على كل شيء، والاعتراض على كل شيء، ولهذا سماه « حامض المعارضة ».

وشخصية مصطفى كمال، الذي جعل من تركيا الشرقية الوقور الضعيفة دولة أوربية قوية، مضحكة.

وشخصية الفتاة مود، التي قامت له بمهمة الدليل في بعض زياراته، فشغلته بجمالها وفتنتها عن التأمل في الأكروبول، وهو يقول عنها : « إنها تنسيك زيارة الجنة فضلا عن الأكروبول ».

والى جانب التقاطه للشخصيات فهو كذلك يلتقط المفارقات، ويبرز ما فيها من طابع الفكاهة، ويصنع منها لوحات أدبية رائعة عامرة بالحياة، تضارع أنضر لوحات الخيال.

والى جانب الشخصيات الإنسانية التي تبدو و كأنه يبتكرها أو يخلع عليها سمات خاصة، نجده يعطي للمدن شخصيات حية متحركة تشبه الشخصيات البشرية.

ها هو يلتقط شخصية مدينة نيس ، فيضعها في هذا الإطار الجميل : « مدينة نيس غانية جميلة، ترتدي أزهى فساتين السهرة الثمينة، وفي جيدها عقد من أجمل العمارات والحدائق النظيفة.

نيس مدينة الزهور والغرور، مدينة الشباب الجذاب المرح، والكهولة المثرية.

نيس مدينة البذخ والرفاهية، مدينة الحب الإبليسي، مدينة الشهوة الإنسانية، مدينة القمار والانتحار.

المرور من رصيف الى رصيف آخر عملية يحسب لها ألف حساب، والنظر من وجه غادة الى أخرى عملية يحسب لها ألف دقة قلب .. » .

أما مدينة نابلي فلها شخصية أخرى تتجسد في هذه اللوحة : « نابلي مدينة جميلة تقع تحت رحمة الله ثم رحمة بركان فيزوف وهو بركان دائم الغضب، دائم التدخين، لا أظنه يدخن السجائر الإيطالية، فهي غالية الثمن جدا.. » .

وأما شخصية اسطنبول فهي موضوعة في إطار السخرية اللذيذة التي وضعها فيها أتاتورك، يقول المؤلف :

« تضحك وأنت تجول في شوارع اسطنبول، إذ يعترضك فلاح تركي قدم للعاصمة يبيع محصولاته، يرتدي سراويل شرقية، وصدرية عليها شملة صوف حمراء، وينتعل بلغة صفراء، وعلى رأسه كاسكيت سبور من قماش انجليزي.

أو ترى جنازة أحد عباد الله، وعلى النعش تابوت يكسوه الكشمير المزخرف وعلى التابوت من جهة رأس الميت حيث كان يوضع الطربوش أو عمامة الميت تجد قبعة من القش الإيطالي.

وتضحك العجوز السافرة، وهي جالسة أمام بيتها بفستانها الأسود، وهي تدخن النارجيلة في حركات بطيئة، حالمة بماضيها، حينما كانت في الحريم، بينها وبين الشارع ثلاثة دهاليز، في كل واحد أغا، لا تفارق عيناه الأبواب والنوافذ.

ويضحك المؤذن وهو يطل من أعلى المئذنة، داعيا الى صلاة الجمعة، وعلى رأسه قبعة كنصف بطيخة.

انها عادات شرقية استغربت، فاستغربتها، فأضحكتني ».

وللدردنيل صورة شعرية رائعة، حيث يفصل بين قارة أوربا وقارة آسيا عشرون مترا من الماء، فكيف تصورها الكاتب وهو يخوض هذا الشريط المائي؟ « جلست على مقعد في مقدم السفينة أنظر الى القارتين نظر المتزوج بامرأتين، فكنت أرى في زوجتي اليمنى آسيا الشرق باسراره ورموزه، بما في الشرق من روح كبيرة سامية، بما في الشرق من نحل وديانات ومذاهب، الشرق بقصوره وجواهره ولآلئه..

وكانت زوجتي آسيا فتاة ممشوقة القامة، سمراء اللون في قليل من الصفرة، سوداء الشعر، بعينين نجلاوين ساحرتين... ترتدي الثياب الدمشقية المطرزة بالقصب والجوهر، عليها رسوم صينية تتحلى بأنفس اليواقيت والزبرجد ولالىء من أعماق الخليج العربي والمحيط الهندي، وشامخات جبال منشوريا، معطرة بعطور السند.. أمامها القيان يعزفن لها ألحانا شجية، وهي غارقة في مطالعة الخيام شاعر الشرق، وأمامها منضدة من خشب الأرز

المطعم بالابنوس الأنامي والأصداف والمرجان، ونرجيلة من البلور الاسطنبولي، تدخن من غليونها الصيني تبغ شيراز ومقدونيا، وهي هادئة الحركات، لا تنقل نظرها عن كتاب الرباعيات الا لتلقي به على الصور الملونة بالألوان الصارخة في سجاد بخاري، أو على الآيات الكريمة المكتوبة بخط كوفي على القيشاني الذي يكسو الجدار.

وكنت أرى في زوجتي اليسرى أوربا الغرب بمصانعه وآلاته وعدده ومداخنه التي خلقتها المادة والنظام والمطبعة والعقل الهادىء، تحت سماء ممطرة، على أرض يكسوها الجليد تسعة أشهر في السنة.

وقطار الشرق الذي يقوم يوميا من باريس الى اسطنبول، يسير بسرعة تسعين ميلا في الساعة، يشق جبالا، ويخترق بحورا وأنهارا على جسور وقناطر من فولاذ وإسمنت، وحمولته آلات المدنية والموت الزؤام، من آلات صناعة وازهاق أرواح، من أسلحة بيضاء وحمراء وآلات تلفزة، وصناديق أدوية، وأحدث كتب العلم والحب..

زوجتي أوربا شقراء جميلة، بجسم رياضي، بيضاء اللون، ذات عينين زرقاوين صافيتين، ترتدي فساتين السهرة الرشيقة، منسوجة من حرير خشبي، وجوارب من حرير بلوري، وحذاء من جلد الثعابين الاصطناعي.. جالسة على مقعد من جلد، قوائمه من الكروم، في أفخم نزل سويسري، جدرانه وسقوفه من الإسمنت المسلح، وأبوابه ونوافذه من بلور لا ينكسر.. وهي

تتسلى بالتفرج على المنزلقين على الثلج. تدير باصبعها زر المذياع لتسمع الرومبا والفالس، يعزفه تخت بوهيمي، به مائة وستون كمانا.

هذا ما كنت أراه في زوجتي آسيا الكحلاء السمراء، وزوجتي أوربا الشقراء البيضاء.. » ..

فهذه لقطات عابرة من جولة الدوعاجي في حانات البحر المتوسط، التي أراد بها نقل المتعة التي أحسها الى قرائه، واختار منها تلك المشاهد المسلية والطريفة، لم يكلف نفسه في هذه الجولة عناء البحث عما وراء المتعة، ولم يكلف قارئه كثيرا من الجهد في حل طلاسم الرحلة ومعمياتها، بل أورد الصور الطريفة والرائعة مما رأى، لكن وراء ذلك عمق نظرة الكاتب، وطرافة التعبير، وجاذبية التشويق، مما لا يمكن « أن يسئم أحدا أبدا » كما يقول المؤلف.

وبهذا اختط الدوعاجي أسلوبا جديدا في فن الرحلات في الأدب العربي المعاصر، كان يمكن أن يكون رائدا فيه لو واصل السير، ومن يدري، فربما يكشف الباحثون التونسيون عن نصوص ما زالت مخطوطة أو مبعثرة في بطون الصحف من رحلات الدوعاجي.

وأيا ما كان فان قارىء هذه الجولة لا يخطىء فيها شخصية الدوعاجي بما تحمله من فن أصيل، ولوحات رائعة، تكتمل بها جوانب هذا القصاص الرسام الشاعر، الذي برز في معظم هذه الفنون، وترك بصماته بقوة على صفحات الأدب التونسي المعاصر.

الفصل الثالث

كتب تونسية أخرى

ابو القاسم كرو

فى كتابه : « حصاد القلم »

بالأمس تعرفت الى الاديب الكريم، الأستاذ أبو القاسم كرو، في دراسته الممتعة، التي قدم بها أبا القاسم الشابي في هالة من أشعاره، الى العالم العربي الحفي المشغوف بالأدب الأصيل وأعلامه.. فأعجبت به، وحمدت له السعي، وشكرت له الجميل... واليوم أتعرف إليه مزيد تعرف في كتابه الجديد : « حصاد القلم ».

هذا الكتاب كلمات الى العرب في مختلف ديارهم، كتبت في ظروف متفاوتة، فتلقفتها الصحافة والإذاعات العربية، لا لأن فيها جديدا على العرب أو غريبا عنهم فحسب، ولكن لأنها مع ذلك تتميز بالصدق والصراحة وتعبر في بساطة عن آمال العرب وآلامهم.

وبعض هذه الكلمات يرجع الى سنوات، وبعضها من بنات اليوم، ومنها ما كتب في بغداد ومنها ما كتب في تونس أو ليبيا.

ولكن مهما اختلفت بها المناسبات والميلاد، فإن طابعها لا يتغير لأن أباها واحد، ذو عقيدة ثابتة، وإيمان وثيق بالعروبة والاسلام، يخطو في هذه الكلمات الى هدف، ويخطر على بصيرة : لا تخونه ولا تخدعه.

وهو في سبيل ذلك يحاول أن يبدأ من جديد.. يصوغ الفكرة العربية أناشيد، يوشك أن يطلب الى العرب في كل مكان، أن يرتلوها صلوات يسبحون بها بكرة وأصيلا.

وله قلم يطاوعه في أي ميادينها خاض.. في السياسة أو الاجتماع أو الفن أو الادب، لأنه يهضم ذلك كله، ويخلع عنه طابع العمق المصنوع، وينضو عنه أغلفته الصماء، ويتخذ منه لونا جديدا، وشعارا مبسطا هادئا، يمشي به الى الجماهير العربية الكادحة المظلومة، التي بهظها الاستعمار، وأرهقها الاستغلال، وآذاها الفقر، فألفت حياة متواضعة قانعة راضية، واعتملت في صدرها أحقاد السنين المكبوتة، وقرت على أوضاع مهينة توشك أن تؤيس المصلحين، فتخوفت كل صيحة، وارتابت في كل نصح، وقعدت عن كل نصرة.

لكن صاحبنا لم ييأس، فنزل الى الميدان، يبدأ مع شعوبنا من أول الطريق، يلقنها مبادىء الوطنية، والدين، والحرية، والمساواة، والعلم، والفن، لينهض كل أولئك بإنسانيتهم نهضة تحررهم من الجمود، واليأس، والحرمان، والفوضى، والغفلة، والاستعمار.

فهو — في حسباننا — فاتح جديد لمجاهل العقل العربي، والوعي العربي، والقومية العربية في آونتها الحاضرة.

ومما يحمد له أنه منذ تلقف الكرة لم ينس المحور الذي يدور حوله ولم يغفل عن المنبع الذي تتفجر منه أمجاد الشرق الجديد المرجو، فهو يصطحب معه في كل خطواته ذلك المبدأ الذي اعتنقه، وآمن به، وسيلة لامتلاك ناصية الزمن..

لم ينس من أين بدأ، وأين يريد أن ينتهي.. من العروبة المسلمة، والى العروبة المؤمنة بجنسها، وبنفسها.. أولا وأخيرا..

يرشدها – في صراحة لا تحتمل الدوران – الى أن سبيلها الى هذا المجد المنتظر هو القوة.. والقوة وحدها.. قوة العقيدة، وقوة الخلق، وقوة العلم، وقوة الرأي وقوة السواعد.

فهي الكفيلة بأن تحق حقنا، وتزيف كيد المبطلين.

وهو واقعي، يؤمن بالمال، لا على أنه هدف الإنسانية، ولكنه وسيلتها الى القوة والتحرر والمجد.

... متفائل، يؤمن بمستقبل الشباب العربي وقدرته، على تحقيق المستحيل اذا وهب الفرصة وفتح له المجال، ونحيت من طريقه العقبات التي تعوقه عن الهدف، وأوتي من الثقافة والوعي والثقة بالنفس ما يؤتاه أمثاله من شباب العالم.

والمرأة عنده صاحبة دور إيجابي فعال في حياة العرب الراهنة، يجب أن تعد لممارسته إعدادا قويا قائما على سياسة ثابتة، يتكافأ ومركزها الخطير في مجتمع الامة العربية، ما دام الدين لا يعارض في أداء مهمتها السامية، التي وكلت إليها، على مبدأ المشاركة الكريمة مع الرجل فيما تصلح له، وفيما يليق بها من سبل الحياة الجديدة المتطورة.

والوحدة العربية – في أكمل صورها – هدف من أهدافه، فهي التي تحدونا الى منزلة من السعادة والعزة والحرية الجديرة بالأمة العربية في ماضيها المشرف، وحاضرها العتيد، ومستقبلها المشرق.

وليس الادب وشيجة من وشائج القربى بين العرب في مختلف أمصارهم فحسب ولكنه لبنة قوية بها دعامة الحياة الانسانية، وله في صميم حياة الناس* العامة والخاصة مكانة لا يحتلها غيره، ولا يغني عنه من مقومات الحياة شيء آخر.

ولكي يؤدي الادب هذا الدور في حياتنا أداء كاملا، لا بد أن يتطور ويمتزج بحياتنا الاجتماعية امتزاجا كاملا يتفاعل معها، ويؤثر فيها.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون إنسانيا يهدف الى السمو بالحياة، والنهوض بانسانيتها.

وللأدب في كل قطر عربي مشكلات عامة، وأخرى إقليمية، يكابد ضغطها الادباء، ويحاولها كل على طريقته.

وقد استوعبت هذه المشكلات من التفات المؤلف الكبير الكثير وله فيها محاولات ومحاولات.

* * *

هذه بعض المبادىء المطروحة في صفحات هذا الكتاب، يلمسها القارىء بلا عناء، لأن صاحبها اتخذ اليها طريقا سهلا هينا، وقربها في الأسلوب السائغ الميسر، بلا تحمل ولا كلفة.

كما سيحس القارىء في صوت المؤلف عذوبة همسات صديقه الشابي وهمهمات نفسه الصافية في آلامه وقلقه، وفي آماله وطموحه.

ويتضح في أنفاسه نبرات مهجرية، وترانيم مصرية، وجرس عربي خالص، تتجاوب كلها بألحان الانشودة العربية الكاملة.

وتنبيء عما يقرأ. وأين يقيم بحواسه، وأين يسبح بروحه ووجدانه، وكيف تمثلت آماله وتبلورت في كتابته، فكان صورة متعددة الجوانب للشباب العربي الاصيل.

وهذا الكتاب من قبل ومن بعد معرض للفكرة العربية. تبرز فيه شخصية الشباب العربي الطامح، المتزن في طموحه، الواثق بنفسه، المؤمن بغده الزاهر، العامل في دأب على تحقيق مطامحه، غير هياب ولا مبال : أين وقعت قدمه من طريقه.. مع أقدام الناس أم على رؤوسهم، ما دام يسعى لغاية نبيلة، يعيش لها، ويفنى من أجلها، هي إعزاز العرب والتمكين للفكرة الاسلامية من رؤوسهم، تدفعهم وتحررهم وتعصمهم..

ذلك ما لمحته في سطور الكتاب.. أما وراء السطور فمتروك للقارىء، إذ هو أعمق وأدق وأجدر بالنظر والتمعن. وأحق بأن يقف القارىء عنده متمهلا.. فإنه لو فعل لظفر من هذا الكتاب بخلاصة لفلسفة الشباب الجاد الهادف الى بعيد.

ويقيني أن العربي المثقف سيجد صورة مقربة ميسرة لآماله الوطنية والاجتماعية والأدبية في كل ثنية من ثنايا هذا الكتاب.

ولست في حل من مزيد القول في الكتاب والمؤلف، ولكني أرجو أن يكون فيه لشباب العروبة زاد، وأن يتخذوا منه ومن أمثاله عبرة اليوم، وسلاح الغد.

وبعد.. فهل تراني قلت ما كنت أحب أن أقول ـ أو ما كان ينبغي أن يقال ـ في الكتاب والمؤلف ؟

إن ذلك يستدعيني أن أطيل في الوقوف والتمعن والتقصي. ولـكنني مشفق أن أحجب المؤلف عن القارىء طويلا، فلأترك هذا المكان، ولأخل المؤلف يتحدث الى قرائه، حديث الصديق للصديق، هامسا إليهم همساته المحببة، أو مجلجل الصوت جلجلته المحببة كذلك، فإن للقارىء في كلا اللونين زادا ومتعة.

وما أحوجنا الى من يوقظ فينا كل قوانا.. كلها بلا استثناء. الطيبة منها والشريـرة البناءة والمدمرة على السواء، ثم ينفض عنهـا آثار السنين، وأثقال القيود، وآصار الاستعمـار، ثم يدفعهـا في الطريق السوي تعمل ..وتعمل ..وتعمل.

وكتابنا لم يدخر قوة في هـذه السبيل الموفقة إلا بذلها غيـر ضنين ولا مخادع.

وحسبنا وحسبه : صدق البذل، ونبل القصد...(1)

---

(1) هذا المقال كتبه المؤلف مقدما به كتاب « حصاد القلـم » المطبوع فى القـاهرة عام 1954، وهو تقـديم لم يطلبه مؤلف الحصاد وانما تطـوع بـه الصديـق رضوان ابراهيم بطلب من المشرف على طبع الكتـاب . ولم يعبـر التقديم عـن فحوى الحصاد بقدر ما عبر عن آراء المقدم الشخصية . « ك »

أبـو القـاسم كـرو :

فى كتابه عن عبد الرزاق كرباكة

سلسلة اعـلام المغرب العـربى

ان اصدار هذه السلسلـة هو عتاب موجه الى القـراء . وتذكرة للعرب فى المشرق والمغرب ، لأنهم نسوا – بل اهملوا – حياة هؤلاء الأعلام الذين جاهدوا حتى أوجدوا للمغرب نباغة . وكونوا له تراثا أصبح ملكا للثقافة الانسانية كلها . ومع ذلك ظلوا مجهولين حتى فى أوطانهم ، بل حتى من معاصريهم .

وعلى الرغم من ان عامة القراء والمثقفين فى بلدان المغرب يعرفون الكثير عن أقطاب الآداب العالمية ، ويعرفون قدرا ليس بالقليل عن الأدباء المشارقة الا أنهم لا يعرفون القليل أو الكثير عن أعلام المغرب .

وتريد هذه السلسلة أن تسهم فى التعريف بهؤلاء الأعلام . لأن فى التعريف بهم ردا لاعتبار المواطنين المغربيين . واعلامـا بأن فى المغرب العربى وبين رجـاله من ناضلوا لكى يؤصلـوا للمغرب ثقافة ، ولكى يبنوا له أساسا صلبا من العلم والمعرفة والأدب والفـن .

وهذه السلسلة لا تقتصر على التعريف بالاعلام المعاصرين وحدهم ، ولا تتناول الأعلام التونسيين فحسب ؛ لكنها تعرف

بالأعلام المعاصرين ، وتذكر بالرواد القدامى للمغرب فى أوسع نطاقه الزمانى والمكانى .

وفى مقدمة الأعلام الذين عنيت السلسلة بتقديمهم الشاعر القصاص المسرحى ، والصحفى والفنان عبد الرزاق كرباكه ، الذى ولد مع مولد هذا القرن ، وبارح هذه الحياة قبل أن ينتصف هذا القرن .

وحين يقدمه لنا المؤلف يبدأ فيلم بمعالم حياته ، وجوانب شخصيته ، فيحقق تسميته ومن أين جاءت ، كما يحـــدد مكان ميلاده وزمانه .

ان عبد الرزاق كرباكه ينتمى الى الأصل الاندلسى ، والى مدينة فى شمالى مرسية تسمى باسم كرباكه ، وتنسب أسرته الى المعتمد بن عباد ، جاءت الى تونس مع موجة الهجرة التى أجبر فيها عرب الاندلس على أن ينزحوا عن ديارهم فرارا بدينهم وحياتهـــم .

فى هذه الأســـرة التى كانت تحتـــرف بعض الصنـــاعات الصغيرة نشأ هذا الشاعر ، وفى السابعة من عمره التحق بالمدرسة القرآنية ، وفى بداية هذه المرحلة من حياته ذاق مرارة اليتم ، ففقد أباه ، لكـــن ذلك لم يثنه عن مواصلة تعليمه فى المدرســـة العرفانية ، وكان من أنجب تلاميذ المربى الشهير الشيخ محمد مناشو ، ثم انتقـــل الى الزيتونة ، لكنه لم يكمل الشـــوط الى

نهايته ، اذ تحـول الى الحياة الأدبيـة والفنية والاجتمـاعية والادارية والنقابية والاقتصادية ، وأخذ يغامر فى الحياة بالطول والعرض حتى غادرها فى عام ١٩٤٥ ٠

وكان لكرباكـه مشاركة ملحوظـة فى عدد غير قليـل من الأنشطة الادبية والفنية ، فهو شاعر متفوق ، وزجال بـارع ، وكاتب ، وصحفى ، وقصاص ومسرحى ممتاز ٠

وكان بشعره وأزجاله يعكس الحياة المعاصرة التى يحياها دون تصنع أو اختلاق أو تزوير ، ولهذا كان يعكس التجـارب حية نابضة فى نسيج قوى ، وروعة أخاذة ٠

ولقد انتقل هذا النسج القوى والديباجة المتماسكة الـى نثره ، فعنى بالجزالة والأناقة والفنون البلاغية ، مع الارتباط بالواقع ، وان مال الى الرومانسية الحالمة ٠

وهو فى قصصه ومسرحياته فنان محكم الصناعة ، جيـد السبك ، واسع الخيال ، وفى هذا السبيل أخذ من التراث المغربى « عيشة القادرة » و « ولادة وابن زيدون » ، فنسجهما نسجا جديدا يوشك من يقرأهما أن يحس فيهما بنبض العصر الحاضر ٠

وكان الى جانب ذلك يكتب قصصا قصيرة ينشرها فـى الصحف أو يذيعها تحت عنوان « عبرة فى قصة » ، ويعالج فيها مشكلات الحياة اليومية ، ومسائل الاجتماع والسياسـة ، مثل قصصـه « جـريمـة شهـر زاد » ، و « أبـو القـطط » ،

و « بدعة وحماد » ، وهى معرض للآراء الأصيلـــة فى شؤون الحياة المعاصرة •

وفى ميدان الصحافة كان كرباكه يشارك فى تحرير عدد من الصحف ، فى مقدمتهــا جريدة « المضحك » الفكاهيـــة ، التى اصطنع فيها أسلوبه الساخر فى نقد الناس والمجتمع ، وكشف العيوب الاجتماعية ، واثارة المشاعر تجاهها ، وفى عـــام ١٩٢٠ أصبح رئيسا لتحريرها ، كما اصبح محررها الذى يكتب أشعارها وأخبارها ، وينسق حوادثها ، ويقترح لها الرسوم والصور •

وعندما توقفت جريدة « المضحك » شارك فى تحرير عدد من الجرائد منها جريدة « لسان الشعب » التى كتب فيها مقالاته الأدبية والاجتماعية الجادة ، ثم عمل رئيسا لتحرير « جريـــدة الزمان » عام ١٩٣٢ ، وفيها تبنى قضايا الطبقة الكادحة وأصحاب الصناعات والمهن اليدوية ، ووقف قلمه وجهوده على حماية هذه الصناعات من المضاربة ومزاحمة السلع الأجنبية لها •

ومن خلال عمله الصحفى اشتق للصحافة شعارا يؤكد دورها الكبير فى قيادة الشعب •

وقد تمثل هذا الشعار فى البيتين التاليين :

اقــرا الجريـــدة راضيـــا او سبهــــا
لا شىء غيـــر الحـــق يرضـــى ربهـــا
شـــأن الصحـــافة أن تسيـــر شعبهـــا
نحـــو الهـــدى ، لا أن تســـاير شعبهـــا

أما جهوده فى النهوض بفن الغناء لفظا ومعنى وعاطفة فهى جهود موفقـــة ، ارتفعت بالأغنية التونسيـــة من وهدة الخلاعة والتبذل ، الى الدعـــوة للعمل والكفاح ، والى الرقى بعواطف الجماهيـــر .

وفى المسرح شارك كرباكه ممثلا وكاتبا منذ عام ١٩١٩ فى جمعيات التمثيل ، وفى الفرق الفنية التى شارك فى انشائها أو ادارتهـا مثـــل « فرقـــة الهـــــلال » وجمعيـــة « الآداب » و « الجوق الكاملى » ، وأخذ يؤلف للمسرح التونسى روايات من أنواع الملهاة أو المأساة ، من بينها مأساة « أميرة المهديـــة » ، وغنائية « عيشـــة القادرة » ، ومأساة « ولادة وابن زيدون » ، وكان أكثرها باللغة الفصحى وبعضها بالتونسية الدارجة .

هذه الجوانب العديدة واللامعة التى تناولها مؤلف الكتاب فى سرعة وعمـــق جديرة بأن تجعل من صاحبها علما من أعـــلام النهضة الفكرية والفنية فى العالم العربى كله ، لا فى تونـــس وحـــدهـــا .

وهى جديـــرة من الشباب العربى بكل حفاوة وتقديـــر ، وجديرة بأن تجعلهم يتخذون من نضال صاحبها نموذجا للنضال الهادف لبناء الشخصية العربية فى جانب من جوانبها .

على أن مؤلف الكتـــاب لم يكتف بهذا الاطار العـــام ، بل تسلل الى خصـــائص هذه الشخصية ، والى دقائـــق حياتها ،

فعــرض من عناصرهــا ، ومن نوادرهــا وأقوال المعــاصرين والمعاشرين للشخصية الشيء الكثير والممتع ، وخصص جانبا كبيرا من هذا الكتاب الصغير لعرض نماذج من نثر كرباكه ومن شعره وأغانيه العامية والفصيحة ، تحدد معالم شخصيته ، وتدل على فلســفة صاحبها واتجاهاته وآرائــه فى الحياة والنــاس والأحداث .

وكأن كرباكة كان يندب حياته وينعى نفسه بهذه الأغنية الحزينة فى وقت مبكر :

بعد موتى عناصر الجسم تنحل تباعا ، وتستحيل رغاما
ثم تجــرى المياه فيها فتبتــل فيمتصها النبــات طعاما
فاذكرينى اذا تكللت بالورد ، وان شئت فاذكرينى دواما
غير انى بالورد أرنو على البعد ففيه هباء جسمى أقاما
وانشقيــه فان فيه مزاجا عاطرا كان فى فــؤادى غراما

. سلام على كرباكة فى الاعلام

وتحية لجهود كرو فى المزيد من التعريف بأدب المغرب وأعلامه المناضلين الخالديــن .

محمد الفاضل ابن عاشور

فى كتابه : « الحركة الادبية والفكرية فى تونس »

صاحب هذا الـكتاب هو سماحة العلامة المرحوم محمد الفاضل ابن عـاشور مفتي الجمهورية التونسية، وعميد الـكلية الزيتونـية للشريعة وأصول الديـن، وعضو مجمع اللغة العربيـة بالقاهـرة ، الذي فقدتـه تونس والعالم العربي في ابريـل من عـام 1970 .

وكتابه هذا من أوائل الكتب التي عرفت العالم العربي بالحركة الأدبيـة والفكريـة في تونس المعاصـرة، إذ هو حصيلة المحاضرات التي ألقاها العالم الراحل في معهد البحوث والدراسـات العربيـة التابع لجامعة الدول العربية. بالقاهـرة ، وقد تولى المعهد طبعه ونشره في العالم العربي على أوسـع نطاق، وبهذا حظي بما لم يحظ بـهأي كتاب تونسي من انتشار خارج تونس، وعلى مستوى البلاد العربية كلها.

وهـذا السفـر الذي تتجاوز صفحاتـه أربعمائة صفحة يـحتوي على قسمين القسم الأول للبحوث والدراسـات، والقسم الثاني يحوي طائفـة من النصوص الشعرية والنثرية لأعلام الشعراء والخطبـاء والـكتاب والصحفيين والمفكرين التونسيين المعاصريـن.

ويمضي القسم الأول والأكبر في ثمانية فصول متتابعة.

ففي الفصل الأول يمهد المؤلف لموضوعه بالتعريف بالحياة السياسية والاجتماعية في تونس وكيف كانت تعيش قبل الاحتلال وماذا كسب شعبها من اصلاحات تمثلت في إنشاء المدرسة الصادقية وإصلاح جامعة الزيتونة، وافتتاح المكتبات وتشجيع الصحافة والطباعة في عهد الوزير خير الدين، وكيف عصف الاحتلال بكل ذلك حينما دهم البلاد، واضطر رجال الفكر والأدب الى الانزواء لولا كفاح الأمجاد المؤمنين ببلادهم مثل الشيخ قبادو، وبيرم التونسي، وبوحاجب، والسنوسي. الذين حملوا أعلام الثقافة العربية في مواجهة الاستعمار.

وبمزيد من التفصيل يتحدث الفصل الثاني عن المدرسة «الخلدونية» وارتباطها بحركة التحرر التي شنها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده. والكفاح المرير بين المؤمنين بالثورة الفكرية وبين الاستعمار الذي أراد أن يحيل هذه المؤسسات الى معامل لتفريخ الكتبة وصغار الموظفين، لولا همة البشير صفر الذي تزعم الحركة الثقافية وحشد لها خرجي الصادقية، ومنها نشأت الجمعيات الثقافية مثل الجمعية الخلدونية .

وكانت الصحافة من وسائل قيام حركة البعث الإصلاحي، وفيها ظهر الثعالبي والخضر حسين وغيرهما.

وقد ساعد على ذلك ظهور الحركة العلمية والتفاعل المستمر بين

مشرق الوطن العربي ومغربه، مما تكشف عن فنون جديدة من الشعر، والنثر الفني والسياسي والعلمي.

ويخصص المؤلف الفصول الثلاثة التالية للحديث عن قدماء الصادقية وأثرهم في الأدب والفكر والصحافة وحركات الشباب ويحلل مظاهر التطور ونشأة الفنون الأدبية المختلفة والعوامل المؤثرة في ظهورها، والروائع التي أنتجتها وآثارها في نهضةالفكر التونسي الجديد.

وفي الفصل السادس يتحدث عن الإذاعة التي أنشأت استجابة لوعي الشعب وعن كفاحها في سبيل التحرر، وأثرها في الأدب والفن والفكر.

ويخصص الفصل السابع للاصلاحات التي تمت في جامعة الزيتونة وكيف كانت هذه الإصلاحات استجابة لمركز هذه الجامعة وقوة نفوذها في الأمة التونسية.

وبالفصل الثامن ينتهي المؤلف الى « الموقف الحاضر وآثاره »، فيعالج الأوضاع التي كانت تعيشها تونس في تلك الفترة، والصراع الثقافي بين الاستعمار والقومية، بحيث شكل هذا النزاع تيارا ثقافيا خاصا بعيدا عن الصراع السياسي، والمؤلف يرى أن انتصار تونس السياسي يؤثر تأثيرا عكسيا على الثقافة القومية، لأن الصراع السياسي من وجهة نظره يحصن الثقافة العربية ويمنحها القدرة على مقاومة الاستعمار الثقافي، وعلى العكس فان المهادنة السياسية تعني افساح المجال لاستقرار الثقافة الدخيلة بامكانياتها الضخمة إزاء الثقافة المحلية الوليدة.

ومن خلال هذه الفصول التي ألممنا بمضمونها في سرعة يعرض المؤلف بمزيد من التحليل والتفصيل واقع الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية والتعليمية في البلاد، ويعرف بخفاياها تعريف العالم الخبير.

وفي هذا كان المؤلف يعكس إحساس أبناء تونس المثقفين بالواقع الذي كانوا يعيشونه، وما فيه من جوانب الصراع الذي يعانيه كل شعب ينجح في اغتصاب حريته من بين أنياب الاستعمار ويواصل نضاله لبناء مجتمع جديد يسعى بوطنه نحو التقدم، ويحاول أن يتمرد على عوامل الجمود.

والمؤلف يرسم لـه طريق النهضة الأدبية، حينما يؤكد ضرورة الاعتصام بالعروبة، والاندماج في المحيط العربي العام، والتفاعل معه تفاعلا كاملا وذلك بتبادل بعوث الطلاب والأساتذة، وتشجيع الثقافة العربية الأصيلة، ومؤازرة الصحافة والإذاعة والمسرح، والعناية ببعث التراث العربي، ونشر المخطوطات القديمة، والمؤلفات الحديثة، وتشجيع الأقلام الموهوبة والاتجاهات الشابة.

وبكل هذا أفلح المؤلف في تعريف القارىء العربي في الشرق بتونس وواقعها والخطوات التي خطتها في طريق الأدب والفن والثقافة القومية، والأشواط التي بقي عيلها أن تقطعها حتى تحمي ثقافتها من التيارات الدخيلة، وتلحق بالركب في البلاد العربية المتطورة، وتأخذ دورها الذي ينتظرها في إعادة صنع الحضارة والتقدم.

لقد كـان أبـو القاسم الشابي هو العنوان الوحيد الذي تعرف بـه تـونس، لـكن هذا الـكتاب قدم لنـا عشرات من المفكريـن والأدبـاء يقفون في الصف مع أبي القاسم الشابي، وزادنـا معرفـة بواقع تونس المعاصرة التي تسير بخطوات واسعـة الى الأمـام.(1)

(1) طبع الكتاب لاول مرة فى القـاهرة 1956 ثم أعيد فى تونس بالنصوبـر .

محمد الفاضل ابن عاشور

فى كتابه : « تراجـم الاعـلام »

مرة أخرى تتأكد هذه الحقيقـة المعروضة، وهي أن ازمـة الأدب التونسي تتمثل في انعزاله ، وعدم معرفة الأدباء و النقـاد المشارقة بقيمتـه الفنية وبميادين نشاطـه. وقد ألمحنا من قبل الى أن الأدباء التونسيين يحسـون بمرارة وعتب على زملائهم الشرقيين. لأنهـم لا يتفاعلون، بل ولا ينفعلون بما ينتجه أقرانهم من أدبـاء تونس.

لهذا جند أدبـاء تونس ونقادهـا جهودهم لتعريف إخوانهم هنـا وهناك بواقع الآدب الذي يعيش في تونس لـكي يسدوا الفجوة الـكبيرة بين الآدب التونسي وقرائه، ينفرد كل منهم بلون من ألوان التعريف، ولـكنهم يلتقون على هدف واحد هو التعريف بهذا الأدب التونسي والفكر التونسي، والثقافة التونسية، والاعلام بمسيرة البلاد وبخطواتها في سبيل التقدم.

منهم من يعرف بالقيمة الفنيـة لهذا الأدب، ومنهم من يعرف بأعلامـه، ومنهم من يجمع انتاجه، ومنهم من ينشر تراثه، وكل هذه خطوات على الطريق لـكي يلتحم أدب المشرق بأدب المغرب ويتفاعل معـه، ويأخذ منه ويعطيه. شأن كل آداب الاقطار العربيـة، التي تمارس التأثيـر والتأثـر في سرعة تجاوبها، وعميق تفاعلهـا.

وفي القائمة اليوم كتاب جديد لرائد من رواد التعريف بالثقافة التونسية هو العلامة محمد الفاضل ابن عاشور، وكتابه « تراجم الأعلام ».

لقد تناول في هذا الكتاب ثمانية وعشرين من شخصيات الأعلام المبرزين فعلا، والذين كان لهم أثر مباشر في حياة الشعب التونسي على مدى قرن من الزمان.

من بينهم عشرة من كبار علماء المسلمين هم أحمد الورتاني، والشاذلي ابن صالح، واحمد بن الخوجة، واحمد كريم، ومحمد السنوسي، ومصطفى رضوان، ومحمد المكي، وصالح الشريف وسالم بوحاجب، ومعاوية التميمي.

.. وثمانية من الوزراء هم : محمد خزندار. وخير الدين، والعزيز بوعتور، ومحمد الجلولي، ويوسف جعيط، وطاهر باشا، ومحمد حسين، وخليل بوحاجب.

.. وخمسة من رجال الدولة وكبار موظفيها وهم محمد البشير صفر، ومحمد الأصرم، ومحمد بن الخوجة، والمقداد الورتتاني، ومحمد الفكيني.

.. وأربعة من رجال القضاء والافتاء هم الطاهر النيفر، وعمر ابن الشيخ، ومحمد بن يوسف، ومحمد بن الخوجة.

.. وفيهم أديب واحد هو محمد الشاذلي خزندار.

ومن هذا العرض نجد أن المؤلف قد اختار قطاعا معينا

من الاعلام، هو قطاع القيادات السياسية والادارية والدينيـة، ممـا يوحي بأنـه وضع حاجـزا بين القارىء وبين المجتمع التونسي الحقيقي، ولـكن هذا الايحاء ينتفي إذا عرفنـا أن المؤلف قد اتخذ من هذه الشخصيات إطارا يعرض من خلاله تحركات المجتمع التونسي نحو الاصلاح والتقدم.

فهو في عرضه لحياة الوزراء يرصد أعمالهم الاصلاحية، ومدى ما قدموه للشعب التونسي من الآراء والأفكـار والأعمـال، ففي ترجمتـه لحياة الجنـرال محمد حسين يقول إنـه كان « مأخـوذا بالنزعـة الإصلاحـية، شديـد الغيرة على المصلحـة الوطنية.. حنقا على الذين يبتزون جانبا من الثروة العـامة للبلاد، ثم يلتجئون الى البلاد الأجنبيـة ».

وفي حديثه عن الوزير خير الدين يقول « نحيت عن وزارتـه التاسيسيات الحيوية العظيمة التي منها تأسيس مدرسة الصادقية، وتعمير مكتبـة الدولـة ونظـام العدالـة ، ونظـام المحاكـم الشرعيـة، وإصلاح نظام السجون، وتاسيس الخزانة العامة، والإصلاحـات البلدية، والتنوير بالغاز، وإسقاط المغارم على أهل الساحل، والمعاهدات الجمركية لحماية الصناعات الأهليـة، وتوسيع ساحـة الأراضي المبذورة من 60 ألف هكتـار الى مليون هكتـار.. ».

وكذلك كان حديثه عن الوزير محمد العزيز بوعتور : « لمـا انتصبت الحماية الفرنسية بتونس تبين أن هذا الطور لا بد له من رجل متقـرر الثقـة، بعيد عن الريب والمخاتلات ، قدير على تصور

الأمـور، وتحاشي المشاكل قبل مواجهتهـا، مستعد لتلقي تأسيسات الحماية بما لا ينقض من كيان الدولة التونسية، ولا يضعف من ذاتيتهـا لتبقى متهيئة للنهضة: فكان من حظ البلاد أن دعي بوعتور الى هذا المنصب الخطير في ذلك الوقت الخطير ».

كذلك يقيس المؤلف مدى نجاح العلمـاء ورجال القضـاء والإفتاء بما يقدمونـه من إصلاح ديني، وما يكون في سلـوكهم الشخصي والعام من قـدوة ومثل عليـا.

وفي تقييمه لرجال الدولة يعدد آثـار كفاحهم فيما يقدمونـه من سلـوك وظيفي نظيف، وفي مدى حرصهم على أموال الدولـة وسمعتهـا، ونزاهة الحكـم فيهـا، وفي مواقفهم الصلبة إزاء الاستعمـار السياسي والاقتصادي والثقافي.

بهذا يجد القارىء نفسه مع الشعب التونسي، والمجتمع الذي يتأهب للاصلاح والتقدم من خلال هذه الشخصيات المؤثـرة في المجتمع التونسي تأثيـرا مبـاشـرا.

وبالإضافـة إلى هـذا فان اهتمام المؤلف بالبيئة الاجتمـاعية والسياسيـة والثقافية التي تعيشها الشخصيات باعتبارها الوعـاء الذي أنبت هذه الشخصيات يجعل القارىء يعيش في الصميم من الحياة التونسية خلال قرن من الزمـان، وبما يجري فيها من تيارات الإصلاح، ومن عوامل الانتكاس، دون محابـاة لشخصية من الشخصيـات أو تحامل على الأخرى.

وليست هذه التراجم تاريخا للاحداث والأشخاص فحسب، ولكنها معايشة كاملة لحياة تونس في هذه الفترة، وعلاقاتها بالبلاد وبالأحداث العربية والإسلامية والعالمية.

كذلك نرى المؤلف في عرضه للبيئة الخاصة لكل شخصية من هذه الشخصيات، يمهد لتحليلها، ويعرض مكوناتها أمام القارىء لكي يتعرف على وقائعها وعلى خصائصها البشرية والفنية، وعندئذ تتحول الترجمة من مجرد السرد الى الإحساس الذاتي بالشخصية والتعاطف معها، تبعا لتعاطف المؤلف وحنوه على أشخاصه،. وكان تعاطفه مع الشخصيات العلمية والأدبية كبيرا، وكان أكبر منه تعاطفه مع المعاصرين الذين عايشهم وأخذ منهم وأعطاهم، كما في ترجمته لمحمد الشاذلي خزندار.

وفي كلمة مجملة نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب هو في الظاهر ترجمة للاعلام، وتعريف بهم، لكنه في الواقع احاطة عامة بحركة المجتمع التونسي كله من خلال حياة هؤلاء الاعلام وسيرتهم.

ومن خلال هذه التراجم نلمح الشيء الكثير من حياة المؤلف وميوله ومكونات شخصيته، فنحن نراه يؤكد في سير أعلامه على العلم وقيمته الحقيقية، وعلى الحرية وضرورتها للانسان، والطموح الى التجديد، والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، وينقم على مادية الغرب المستعمر ويخشى منها على الثقافة العربية.

على أن هناك شخصية تبرز وتتسع حتى تحتوي كل هذه الشخصيات ، وتشكل قدرا مشتركا في مكونات معظم هؤلاء الأعلام، ودقائق حياتهم، هذه الشخصية هي شخصية جامعة الزيتونة، وتأتي على اثرها المدرسة الصادقية ثم الخلدونية، وفي المدارس التي كانت مصنعا لانضاج المفكرين والمثقفين والعلماء والأدباء وكانت المنارات التي اهتدت بها البلاد، والتي عصمت ثقافتها العربية من أن تذوب في الثقافات الدخيلة على مدى هذه الفترة المخصبة من تاريخ البلاد.

إن كتاب تراجم الأعلام في هذه الفترة من حياة تونس وبهذا العرض الجلي المشوق يعتبر خير تعريف بالفكر التونسي والثقافة التونسية يقدم الى القارىء العربي في شتى الأقطار. اذ يضم في الواقع تعريفا بالأشخاص والمواقع والبلدان والأحداث وواقع الحياة كلها في آن واحد (1).

(1) طبع بتونس 1970 .

محمــد الحليــوى

فى كتابه : « فى الادب التونســـى »

هـذا الـكتاب ولو أنـه مجموعة متناثـرة من المقالات الا أنــه يجري في إطـار واحد هو الأدب التونسي.

ومنذ البداية تبرز الشكوى من جهل المواطنين بواقع الإنتـاج الأدبي في بلادهم، وتجاهل الشرقيين لموقع الأدب التونسي مـن خريطة الإنتاج الأدبي في العـالم العربي، يقول المؤلف في مقدمـة كتابه هذا : « ان الأدب التونسي عاش قرونا عديدة يأخذ من الأدب العربي ولا يعطي، أو ظل قانعا بالأدب المصدر من عواصم الشرق دون ان يدخل يوما في حسابـه ».

والمؤلف يحدد هدفه من إعادة نشر هذه المقالات في كتاب، بأن هذه الثروة الضخمة من المقالات النائمة في بطون النشريات لما تستثمر بعد، وأن هذا الكتاب جاء ليعين النشء على معرفة حقبة من تاريخ الأدب التونسي المعاصر تمتد الى ثلث قرن هي التي يمكن أن نسميها عصر الشابي، وما كان يستولي على أصحابها من اهتمامات فكرية.

والـكتاب ينقسم الى أربعـة أقسـام :

قسم الدراسات الأدبيـة، وقسم التراجم، وقسم المناقشات، أما القسم الرابع فيخصصه المؤلف للحديث عن القيروان.

وإذا كانت شخصية الشابي وعبقريته تستأثر باهتمام النقاد والمؤرخين، وتكاد تعطر القلم الذي يكتب عنها، فقد بدأ القسم الأول من الكتاب بدراسة لديوان الشابي في طبعته الجديدة.

والمؤلف حين يتناول ديوان الشابي لا يحيط بجملته، ولكنه يلقي الضوء على زاوية معينة، ومن خلالها يخرج بمجمل آرائه وأفكاره عن الشابي وشعره.

فهو يركز على القصائد الجديدة التي تنشر في الديوان لاول مرة، بالطبعة الجديدة وهي تسع وعشرون قصيدة، لم تنشر في الطبعة الأولى.. وقد استبعدها الشابي نفسه من الديوان لأنها في رأيه لا تعبر عن أسلوبه أو روحه، بل فيها سذاجة كسذاجة الأطفال.

وهو يحلل محتويات هذه القصائد، ويصنفها الى مجموعات تتحدث عن موضوعات الموت والعدم والقدر، والفلسفة، والطبيعة والغاب، والغربة الروحية، والقلب والحب، والمجتمع، والشعب. ثم يتحدث المؤلف عن أطوار شعر الشابي ويخلص من دراسته بالمقررات التالية :

أولا – أن الشابي يقف في صف واحد مع زعماء الرومانتيكية أمثال هيجو، ودي فيني، وجيته، وشاتوبريان، وبيرون، ولامرتين، وجبران، ونعيمة، وإيليا أبي ماضي، وإبراهيم ناجي.. وغيرهم، لتوفر العناصر الأصلية للرومانتيكية في شعره.

– أن ألفاظ الشابي وهو ينسقها ويركب منها صوره الشعرية تثير الإعجاب بقوة الشاعرية، لكنها لا تفلح في خلق الإيحاءات

النفسية، ومع ذلك فهو في قصائد قليلة يقتصد في الألفاظ. ليركز على تكوين الجو الإيجابي الملائم مثل قصيدته « الى عازف أعمى » التي يقول فيها :

أدركت فجر الحياة أعمى وكنت لا تعرف الظلام
فأطبقت حولك الدياجي وغام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة تقاسي خواطرا كلها حرام
وغربة مابها رفيق وظلمة ما بها ختام
تشق فيه الوجود فردا قد عضك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسي وفر من قلبك السلام

ثانيا — أن موقف الشابي من الشعب، وما وجهه إليه من قوارع ودمدمات لم تكن انتقاما من الشعب الذي تجاهله، وانما هي رغبة واضحة وصريحة في الإصلاح، وتنبؤات بالمستقبل، ودفع لاقتحام الحياة، وفض مغاليقها وتحطيم الحواجز التي تعترض طريق المستقبل.

أما الموضوع الثاني فهو « النقد الأدبي المعاصر في تونس »، وهو عملية رصد لحركة النقد، وإحصاء لما كتب، واستعراض لآراء الأعلام الذين كتبوها في كتبهم وصحفهم وإذاعاتهم، وتقييم لهذه الجهود، ومن خلال المقال نلتقي باراء الكاتب متناثرة بين ثناياه.

وفي موضوع « الحركة الفكرية في تونس » يستعرض المؤلف مظاهر هذه الحركة في وفرة الشعراء والصحف والجمعيات، ونشاط الحركات الفنية والسياسية، لكن نواقصها كثيرة، تتمثل

في اهتمام الصحافـة بفضائح المجتمع وخدمة الأقويـاء، وقيام الأدب على التهريج والشعوذة والتهافت على الشهرة، وأزمة النشر، وانعكاسها على الأدبـاء، وتملق بعض الأدباء للجماهير، وتخوفهم من الخروج على المألوف.

ثم يخلص الى أن النهضة لا بد لها من مقومات، هي النشاط المتخلص لتجميع الشباب، وتوجيهه بعيدا عن الخصومات والطائفيات، وانقاذ الشعب من الجهل، بافتتاح المدارس والأندية والمكتبات، وقيام العمل في ظل شعار : العزيمة، والإيمـان، والإخلاص.

وفي دراسته لشعر الشاذلي عطا الله يحصر أغراضه في الروحانيـات والطبيعة والوطنية، والقومية، واعتزازه بالوطن ورجاله ومعالمـه ويميز شعره بمتانة البناء، وسلامة الذوق، واختيار الـكلمات.

وفي القسم الثاني « مع أدبائنا الـراحلين ».

يلم بحياة الأدبـاء والشعراء والمفكرين أمثال محمد البشروش الذي برز في الصحافـة والقصة واتقان الفرنسية، وصالح السويسي تلميذ المؤيد والأفغاني ومحمد عبده، وداعية الاسلام على أساس الاستمساك بالعروبة والدين المطهر، والاقبال على العلوم الحديثة.

أما الشيخ محمد بوشربية فيتتبع حياته العلمية والتعليمية وثورته على المناهج التعليمية ومطالبته بتطويرها، وتشاؤمه ونقمتـه على الحياة، وطموحه الى تحرير بـلاده.

وأما أحاديثه عن عبد الرزاق كرباكـة، ومحمد العربي الـكبادي فلا يعدو أن يكون مرثيـات عاطفية.

وعن محمد الفائز يلم بنشأته واندماجه في الأوساط الأدبية، واشتغاله بالتعليم، ومشاركته في الصحافة والخطابة والأندية، ومطالبته بالإصلاح على أساس العودة الى مجد العرب ، .

وفي ترجمته لأبي الحسن ابن شعبان يتحدث عن انشغاله بالتعليم والأدب، وعن ذوقه الأدبي الذي جعله من فحول الشعراء.

أما القسم الثالث فيقوم على مناقشات لبعض القضايا، وفيه تتناثر آراء المؤلف في بعض الشؤون الأدبية والفكرية التي تجيء بمناسباتها، وتتلخص في :

أولا — الدعوة الى تكوين أدب قومي.

ثانيا — لا سرقة في الشعر ولكن هناك طائفتين من الشعراء : شعراء الاختيار، وشعراء الشخصية، وشعراء الاختيار يستحضرون نماذج معينة وهم يكتبون أشعارهم، فتتوارد فيها الخواطر.

وتجري المناظرات بين المؤلف وبين الكتاب والنقاد حول قيمة التراث والأعلام القدامى، فيتحامل على ابن رشيق ويصفه بأنه جامع آراء، وليس ذا راى أصيل، ويدافع عن الحريري ومقاماته، ويمجد ابن هانيء وشعره.

وأقوم آراء المؤلف هنا هو الدعوة الى النقد الموضوعي القائم على المبادىء والقواعد، والمعني بالتحليل في ضوء القيم الفنية والنزعة الإنسانية، واعتبار العمل الفني كلا قائما بذاته غير قابل للتفتيت.

وفي الاستفتاء حول الشعر يرى أن الشعر الجديد سيعود من تلقاء نفسه الى الوزن بشكل أو بآخر، والى القافية ولو بالمزاوجة ،

وسيصير الى انتقاء اللفظ الموحي، والتعبير بالصور بدل التعبير التقريري.

والثقافة العربية المعاصرة في رأيه تجتاز فترة القلق والحيرة، وتبشر بالدخول في عهد الابتكار والخلق بعد أن تخطت دور الاعجاب الابله بالغرب، ولا بد أن تتسم الثقافة الجديدة بالوحدة والقومية والثبات والواقعية والتحرر والانسانية والجمالية.

وهكذا نجد عند تقييمنا لأقسام الكتاب منسوبا بعضها الى بعض أن القسم الأول أهمها وأقيمها، لما فيه من موضوعات متكاملة، وآراء أصيلة يليه القسم الثالث لاحتوائه على الآراء والافكار الحرة النابعة من مناسباتها.

أما قسم التعريف بالراحلين فيغلب عليه طابع الرثاء العاطفي، فلا يلقي الأضواء الكافية على الشخصيات وإن لم يخل من قيمة تعريفية بالأعلام وانتاجهم.

وأما القسم الرابع فهو مقطوعات وحواريات وأشعار تسجيلية قليلة تدور كلها حول القيروان مسقط رأس المؤلف، وليس فيه كبير غناء.

ومع ذلك فنحن نسجل بالتقدير هذا الجهد الذي بذله المؤلف من أجل التعريف بمقومات الأدب التونسي وأعلامه، خدمة للمعرفة والثقافة، وغيرة على الوطن والتراث.(1)

---

(1) طبع بتونس عام 1969 .

رشيد الذوادي

في كتابه : « أعلام من بنزرت »

التربة الأدبية في تونس تحمل من عناصر الخصوبة ما يبشر بعطاء وفير، كما تحمل من ملامح التجديد ما يوحي بالاستمرار في تعميق مجرى التيارات الفكرية الأصيلة.

وشباب الأدباء والمفكرين في تونس يسيرون بخطوات ثابتة نحو التأصيل والترسيخ، وتمكين الأساس، والارتفاع بالبناء.

ومع استمرار الإنتاج التقليدي في الشعر والقصة، ومع ارتفاع مد التجديد في هذين المجالين فان الإنتاج الأدبي في مجال التعريف بالأرض والبشر يتخذ لنفسه مجرى متميزا، يمنح الأساس التونسي قوة وطاقة على الاحتمال في معركة البناء.

فالتعريف بالبلدان والأعلام يكاد يزحم عليك الطريق في كل إقليم وكل بلد من بلدان تونس.

لكل بلد تقاليده ومواسمه وأعياده وطقوسه، ولكل مناسبة ندوة وملتقى لاحياء المعالم والشخصيات والأمجاد.

ولكل مدينة – بل لكل قرية – دورها وأعلامها الذين وهبوا حياتهم لاثرائها، وبذلوا نفوسهم لتحريرها، وأقاموا فيها للعلم سوقا، وللفكر منارات.

وعن كل إقليم وكل مدينة وكل قرية كتاب أو باقة من الكتب، تهدى إليك في سلة معطرة، كما تهدى الزهور والعطور والفواكه والتحف.

وأشهد أنها ليست مطبوعات دعائية أو سياحية، لكنها دراسات علمية جادة، دبجتها أقلام متخصصة، مؤرخة ومتحمسة في نفس الوقت.

تونس العاصمة أشبه ما تكون بالأم في عرس بناتها، تبهر بأضوائها، وتتيه بمسارحها ومغانيها، وتتبرج بزينتها، وتشغل بماتشغل به عواصم العالم التي تتجدد فيها الحياة كل لحظة، وحتى المؤسسات التاريخية والمتحفية فيها تكاد تتجدد مع ما ينجم كل يوم من جديد.

أما عبق التاريخ وجلال العتق فهو هناك : في القيروان، حيث يشع جامع عقبة، ويرتفع ضريح البلوي، وتستريح فسقية الأغالبة، وتنتشر الحرف التقليدية في أسواقها ذات الماضي العريق.

وهناك على الطرف الآخر مدن تتمجد بعلمائها وأدبائها، مثل قفصة، كبرى مدن الجنوب الغربي.

وهناك سوسة، عاصمة الساحل، وثالث مدن الجمهورية..

وهناك المنستير ورباطها التاريخي، وقصرها ومطارها..

وهناك المهدية عاصمة البلاد القديمة، وقلعتها الحصينة التي انطلق منها الفاطميون نحو الشرق.

وهناك .. وهناك، كل مدينة لها مجد، وكل مجد له تاريخ.

لكن المدن التي تحتل المكانة الأولى من اهتمام الشعب التونسي وتقدير الشعوب المحبة للحرية والسلام وإكبارها — هي مدن البطولة،

وقد احتلت الذروة منها مدينة بنزرت، التي تنال – الى جانب شرف التمجيد في القديم – شرف معارك التحرير الأخيرة التي جرت ضد الغزاة المعاصرين، وآخرها المعركة الكبرى التي كللت بالنصر، وأحرزت شرف التحرير لها ولكامل التراب التونسي، بين عام 1961 وعام 1963، ومن يومها رفعت رأس تونس، ورفعت قدر العرب، ورأس البلاد المناضلة، إذ أضافت الى سجل البلاد المتحررة بلدا جديدا ومجيدا.

فعلام يدل تمجيد التونسيين لمدنهم ومحاولة تخليدها والإشادة بها على تلك الطريقة الفريدة ؟

لقد خرجت تونس من محنة كان ترابها فيها هو المستهدف من الغزو، كان المستعمرون يريدون استيطانها والحاقها بتراب البلاد الغازية، وبترها من التراب العربي الافريقي.

ولهذا تمثلت فرحة الاستقلال والحرية في تمجيد هذه المدن والقرى، واتخذ الوفاء لها شكل الدراسة والبحث عن أمجادها الغابرة ومعطياتها اليوم وغدا، واتخاذها أعلاما على النضال المنتصر، والإشادة ببطولاتها وأبطالها، شكرا لله على هذا النصر، وتوعية للأجيال كي تستمسك بحريتها واستقلالها وتقدمها. لا تسمح للاستعمار مرة أخرى أن يدنس ترابها أو يعوق تقدمها.

من أخص خصائص تمجيد هذه البلاد تسجيل البطولات التي أنجبتها على توالي العصور في ميادين العلم والمعرفة والثقافة والفكر والوطنية.

والكتاب الذي يقدمه الينا رشيد الذوادي اليوم نمط من التمجيد العلمي غير المتعصب ولا المغالي، فكتابه « أعلام من بنزرت » يضم باقة من العلماء الذين أنجبتهم هذه المدينة على توالي العصور.

والذوادي شاب على قمة الشباب، هادىء الطبع، بعيد عن الأضواء، يعكف على عمله في غير ضجيج، أخلص ولاءه لمهنة التعليم، وأحب مسقط رأسه بنزرت كل الحب، ومن هذين ارتسم له إطار هذا العمل فاتخذ كتابه معرضا لتحليل الشخصيات التي أنجبتها بنزرت، والتي مارست مهنة التعليم، مهنة الأنبياء والرسل، ومن هذا نجده يتحدث عن شخصياته بحب وتعاطف، ويشخص دقائق حياتهم تشخيص الخبير، ويبرز بدايات تعليمهم ومنابع ثقافتهم ونضالهم باصرار في سبيل المبدأ، والاضواء التي أفاضوها على بلادهم في ميادين العلم والثقافة والاصلاح والتحرر وإقامة العدل وتنوير البصائر — فتلك سمات المعلمين المخلصين لمبادئهم، وتلك هي العناصر التي يحرص كاتب التراجم على إبرازها في شخصياته اذا كان في مثل موقف الذوادي. خاصة إذا كانت شخصياته ممن أنبتهم التراب الذي ما زال يمشي عليه ويتنفس في أجوائه.

وقد يبدو أن الكاتب بهذا التحديد يضيق دائرة بحثه، وويجد قلمه محتسبا بين أبناء الموطن وأبناء المهنة، فلا تتوالى له شخصيات ذات نشاط يدور حوله موضوع ذو قيمة، وقد لا يجد المراجع التي تسعفه بالقدر الكافي لادارة البحث.

قد يبدو ذلك صحيحا من بعض الوجوه، وقد يكون مجرد توقع وإشفاق نحو كاتب نقرأ له لأول مرة، ولكننا حينما نرافقه

في هذا الكتاب نجده قد اجتاز هاتين السلبيتين بثقة واعتداد. فقد تعمق حياة شخصياته، ومنحها من النبض الحيوي ما جعلها تتعامل مع القارىء بشكل يكاد يكون مباشرا، ومنح القارىء فرصة التعرف الكامل على هذه الشخصيات.

والذي منح تراجمه هذه الحيوية وهذا النبض أنها لم تكن مجرد معلومات يسردها عن حياة أبطاله. ولكنها كانت رصدا كاملا للأجواء والتيارات الأدبية والفكرية والسياسية التي أنبتت هؤلاء، ورافقتهم في خضم الرحلة، وسيرت بهم سفن تونس من منبع تاريخها الى مصبه، فجعل منها قطعة نابضة من تاريخ تونس، تسير على الأقدام، وتبطش بالأيدي، وتفكر وتناضل، لتنقل البلاد وتنتقل بها من عالم الظلام وعالم التخلف الى عالم النور والحضارة.

لقد عرض المؤلف في هذا الإطار شخصيات بنزرتية خالصة، فعايشها على بساط التاريخ منذ القرن الرابع عشر، والتقى بها على أرض الواقع في أيامنا هذه، وأخذ منها وبادلها الفكر والرأي.

بدأ المؤلف لقاء التعارف بيننا وبين أبطاله بمحمد بن قاسم البنزرتي المتوفى عام 1391، وانتهى بالهادي زمزم، المتوفى عام 1970، فقدم لنا على مائدة هذا التعارف ست عشرة شخصية، من بينها شقيقه الشاب القصاص الأديب المربي المناضل محمد الذوادي، الذي استشهد في ساحة الشرف بقذائف النابالم في معركة الجلاء عن بنزرت عام 1961، عن ثلاثة وعشرين عاما.

قد يكون من بين من تولى التعريف بهم جنود مجهولون، ولكنهم جميعا أسهموا في إقامة البناء الثقافي واللغوي والأدبي والديني في واقع تونس الحرة المعاصرة.

من هؤلاء عبد الله البحيري، المعلم والخطيب والقاضي، من أعلام القرن الخامس عشر، ومصطفى بن عبد الكريم، اللغوي المحدث والمفتي والفقيه الذي عاش في القرن السابع عشر، وعلي اليشرطي الذي كان من أعلام الدولة الحسينية في القرن التاسع عشر، والذي عاصر الإصلاحات المالية التي قام بها الباي أحمد الثالث، وهجرة الجزائريين الى تونس بعد احتلال الجزائر. وسمع قولة نابليون : « اذا تعود العرب الحرية والعدالة فلن يكون بيننا وبينهم سلام في الجزائر »، وعاصر إصلاحات الوزير خير الدين، وهاجر الى الحجاز، وزار القدس، وأقام في عكا، وشغل بالتصوف، وعمل على نشر طريقة أبي الحسن الشاذلي، كما اشتغل بالسياسة وزامل الأمير عبد القادر الجزائري، حتى أصبح معدودا من قادة الفكر في الشرق.

أما عمر بن الشيخ فقد ولد في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، وتوفي في أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، فأدرك عهد محمود باي، وعاصر ثورة علي بن غداهم، وخروج البايات على الحكم العثماني، وقد لفت نبوغه المبكر كبار الأساتذة، فاختاروه للتدريس بالزيتونة عقب تخرجه منها، واختاره الوزير المصلح خير الدين عضدا له، وعينه مستشارا للمعارف، كما عينه في لجان تصفية الفساد السياسي، وتولى مناصب الإفتاء والتدريس وكان شديد

الإعجاب بعمر بن الخطاب في سيرتـه، كما أعجب بالثورات الاجتماعية التي قامت في الدول الإسلامية، ومن بين زعماء الإصلاح كان معجبا بمحمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، وكان مهتمـا بالتاريخ والحديث والأسانيد، ومع آنـه لـم يترك مؤلفـا واحدا الا أنـه ترك في الفكر التونسي تيـارا مرموقـا.

والعربي النجار المتوفى عام 1916 لم يتلق أي نوع من التعليم، ولكنه كان من مشاهير الشعراء الشعبيين، نادى في شعره بالإصلاح والوطنية.

وعلي بوشوشة المتوفى عام 1917 بدأ تعليمه في بنزرت، وواصله في الزيتونة والصادقية، وأتمه في أنجلتـرا، وكان ثائرا لامعا منذ شبابه، وكان متضلعـا في اللغات الأجنبيـة، وكان امتدادا لحركة خير الدين، لكن عودته من انجلترا الى تونس جاءت مع بداية الاحتلال الفرنسي، فابتعد عن الأعمال الرسمية، وأنشأ أول جريدة غير رسمية، هي جريدة الحاضرة التي ظلت تصدر من عام 1888 حتى توقفت عام 1915 ابـان الحرب العالمية وكان ذكاؤه وحيلته واعتداله مما جنب هذه الجريدة أخطار التصادم مع السلطة، وان أنكـر عليه المواطنون هذا المسلك.

وادريس الشريف المتوفي عـام 1936 عرف بفتاواه المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي (1) وعاصر واقعة الزلاج عام 1911، وأحداث

(1) المعروف انه افتى ضد التجنيس، واعتبار المتجنس بالجنسية الفرنسية مرتـدا عن الاســلام.

مقاطعة الترام عـام 1912، وثورة خليفـة بن عسكر 1915 — 1919، وتأسيس الحزب الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وقيـام الحركة النقابية بزعامة محمد علي، والحزب الدستوري الجديد بزعامة الحبيب بورقيبة، وقد كانت دروسه وفتاويه ومقالاته وأشعاره تملأ أنهار الصحف في تونس وبلاد المشرق، وقد ترك كثيرا من المؤلفات الاجتماعية والتاريخية والدينية والوطنية واللغوية والصوفية، كمـا ترك ديوان شعر تناول فيه مختلف الأغراض.

أما سليمـان والي المتوفى عـام 1961 فقد شهد كل هذه الأحـداث كما شهد ظهور الجمعيات الأدبية والتمثيليـة، واشتغل بالتعليم والشؤون العدلية في مسقط رأسه، وأسهم في تأسيس الجمعيـات الثقافيـة.

وحمودة بوقطفة المتوفى في نفس العام معلم وكاتب وخطيب سياسي وديني، وشاعر ومتضلع في اللغة، وكان دائم التصدي لـكشف أعمال الاستعمـار في بنزرت.

ومحمد علي العنابي المتوفى عـام 1962 درس في باريس بعد بنزرت وتونس، فحصل على إجازة الاداب من السربون. وإجازة الرياضيات من كليتي العلوم والرياضة، ودبلوم العلوم السياسية من المدرسة الحرة، وعرضت عليه جامعة السربون منصب الأستاذيـة اذا تخلى عن تونسيتـه، فرفض، وعاد الى تونس ليمارس نشاطـه من خلال التجمعـات الثقافية، فأنشأ كثيرا من الأندية الطلابية، وعلى اثـر الاستقلال سعى لاشراك تونس في الوكالة الدولية للذرة،

ومثل تونس في مؤتمراتهـا، وأنشأ في تونس مصلحة الأبحاث العلمية والطاقة الذرية، واختير مديرا لوكالة الطاقة الذرية بتونس.

وكان خميس ترنان الذي توفي عام 1964 من مشاهير الموسيقيين العرب المعاصرين، تتلمذ عليه خيرة فناني تونس، وقام على حفظ التراث الموسيقي، وهو ملحن موهوب، قدم أعذب الألحان لخيرة المطربين والمطربات، وهو صاحب الفضل في إقبال الشباب التونسي اليوم على المالوف والموسيقى الاندلسية، وقد عاش في خدمة التراث، والتوفر على ابتكار الجديد حتى وهو في السبعين من العمر.

وعلي الخماسي المتوفى عام 1967 عن 91 عاما اشتغل بالتعليم مبكرا، وقام بانشاء المدرسة القرآنية في بنزرت ليعلم النشء الدين واللغة العربية بازاء التعليم الأجنبي الذي أشاعه الاستعمار ليقضي على لغة الوطن ودينه، وقد اهتم بشتى ألوان الثقافة والعلوم الى جانب التربية، وله مؤلفات دافع فيها عن الأمة العربية ولغتها وتاريخها، وله كتب في الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وتاريخ بنزرت، وقد اهتم بتأسيس الجمعيات الخيرية، وجمعيات الطفولة المشردة، ومما يروى عن جرأته السياسية أنه وجه رسالة الى القائد الالماني في الحرب العالمية يطلب اعترافه بحق تونس في الحرية والاستقلال عندما تضع الحرب الدائرة بين الحلفاء والمحور على أرض افريقية أوزارها.

وقد كان محمد الطاهر الخماسي المتوفى عام 1970 متأثرا بمدرسية خير الدين الإصلاحية، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد

الرحمان الكواكبي، وقد تتلمذ على مكتبات تونس وصحفها، وعاش فترة تأسيس الحزب والثورات الشعبية، وكتب في الصحف، واشتغل بالتعليم والعدل والخطابة، وترك بعض المؤلفات الدينية والتربويـة والاجتماعية والسياسية.

أما آخر هذه الشخصيات فهو الهادي زمزم الذي توفي في نفس العام عن إحدى وثمانين سنـة، لقد عاش في بيئة إسلامية وبعد حصولـه على شهادة الزيتونـة في القراءات قام بالتدريس فيها، ثـم اشتغل بالخطابة والامامة والإصلاح الاجتماعي في قريته وبين مواطنيه، حيث قضى أخريـات حيـاتـه.

وبعد ..

فهذه باقة من الرجـال تشرف بها آمة بكاملها، فكيف إذا كانت تنتسب الى بلدة ليست من كبريات بلدان تونس، لـكنها فرضت كبريـاءها على التاريخ.

فهؤلاء هم بناة تونس الحقيقيون، بناة البشر، أغلى ما وهبت الحياة.

هؤلاء هم معلمو بنزرت مدينة الكفاح والتحرر والسلام، تمجدت بهم وتمجدوا بهـا.

هم جميعا من بنزرت، وهم جميعا معلمون، نظمهم المؤلف في سلك واحد ليصنع منهم عقدا مضيئا حباته المناضلون الأبطال، وكأنـه بذلك يـؤدي ضريبة الولاء للمواطنـة والولاء للمهنـة فـي وقت واحد.

لقد أفلح في تشخيص كل منهم بملامح أصيلة، ميزته بدقة عن أقرانه، لم تلتبس شخصية بأخرى، ولم تطمس واحدة منها معالم أختها، استل بعضها من غياهب التاريخ، وعايش بعضها كامل المعايشة، ولكنـه تعاطف مع الجميع بعدالـة.

وتلك ميزة كاتب التراجم الأصيل، الذي لا تتشابك في أصابعه الخيوط ولا تتعقد، ولا تترك مرسلة مسيبة، بل تنساب كل منها الى الموضع المرسوم لها لتؤدي دورها في صنع النسيج الإنساني الرائع، وتكاد تبعث الشخصية من جديد.

وأروع النماذج التي تألق فيها المؤلف شخصيات عمر بن الشيخ، والعربي النجار، وعلي بوشوشة، وقد شد تعاطف القارىء بقوة الى القصاص الشهيد محمد الحبيب الذوادي، الذي أصبح عليه واجب تقديمـه مرة أخرى من خـلال تـراثـه.

وبالتأكيد هناك شخصيات جديدة برزت من خلال معارك بنزرت الأخيرة ولا بد أن تظفر من المؤلف بلمسة حنان، ليواصل بها تعبده في محراب بنزرت.

إن رشيد الذوادي اسم قلما تسمع به كثيرا في زحمة الأدب التونسي لأنـه يعمل بلا ضجيج، لـكنه بهذا المستوى من كتابة التراجم قد فرض نفسه ككاتب سيرة من الطراز الأول وهو يؤدي للقارىء واجب التعريف بأبطاله الأمجاد في معركة الحيـاة والتقدم (1).

---

(1) طبـع بتـونس عـام 1971 .

رشيد الذوادي
فى كتابه « رواد الاصلاح »

رشيد الذوادي من الكتاب التونسيين المعنيين بفن السير والتراجم، يتابع كل نبتة تنجم في حقل الفكر التونسي، فيمهد لها المكانة اللائقة بها فى سجل الأدب والثقافة والفكر، الذي أصبح حافلا بالأعلام.

وقد استقبلت المكتبة العربية بحفاوة تجارب الذوادي في مجال التراجم من أمثال كتاب « حسن النوري »، وكتاب « أبطال وشهداء»، وكتاب « أعلام من بنزرت ». وكتاب « أدباء تونسيون ».

أما كتابه الذي نعرضه اليوم وهو كتاب « رواد الاصلاح » فيتميز بأنه رحلة حول خمسة من الرواد، عاشوا في فترات متتابعة امتدت من عام 1820 الى عام 1940، وتمثلت رسالتهم في المحاولة الجادة لإصلاح المجتمع العربي الإسلامي في فترة من أشد فترات حياته قسوة وظلما. فاستطاعوا بعبقريتهم وثوريتهم ونضالهم وإصرارهم أن يمزقوا حجب الظلام والجهالة، وأن يصيحوا في وجه الجبروت الاستعماري، وأن يفجروا في نفوس مجتمعاتهم طاقات الثورة، وأن يبشروا بعالم أفضل، فكانوا طلائع الحرية،

وأضاءوا طريق الامة نحو فجر التحرر والاستقلال والتقدم الذي نسلكه اليوم.

وليست شخصيات الذوادي في هذا الكتاب قاصرة على المحيط التونسي كما عودنا في كتبه السابقة، ولكن دائرة الإصلاح اتسعت أمامه، فجعل معها في أنحاء العالم العربي والاسلامي أينما وجد الإصلاح ورجاله الذين ندين لهم اليوم بما أحرزناه من يقظة، وما سنحرزه غدا من تقدم في مجالات الفكر والحرية والثقافة والسياسة.

خير الدين التونسي

وحين تذكر كلمة الإصلاح في تونس تتداعى الى الذاكرة شخصية خير الدين التونسي، محاطة بهالة من التقدير والإجلال، سواء من المثقفين أو السياسيين أو رجل الشارع.

وخير الدين في وعي الدائرة التونسية المحدودة ليس عبقرية عربية تونسية فحسب، ولكنه أسطورة سياسية وفكرية على النطاق الأممي.

فهو ظاهرة شاذة بمقياس عصره وبيئته، وهو شخصية فذة على المستوى العالمي، حيث عاش ومارس حياته بين العشرينات والتسعينات من القرن التاسع عشر في بلد متخلف مهدد بالاستعمار بين يوم وآخر.

وحبكا للأسطورة لا بد أن يكون خير الدين من سبي القوقاز، وأن يباع في سوق استنبول، ليستقبله قصر نقيب الأشراف، فيتربى مع ابنه الوحيد. وحينما تحزن الأسرة لفقد وحيدها تتخلص من شبح الذكرى بإعادة بيع رفيق حياته خير الدين، وبالتداول، يصل الى ساحة باي تونس، الذي يرى فيه شخصية غير عادية

فيخصص له المعلمين والمربين، وتسعفه همته، فلا يقتصر على تلقي المبادىء، بل يعكف على فنون الحرب والسياسة، ويلازم العلماء، ويتقن الفرنسية الى جانب العربية والتركية.

وتونس يومئذ بلد متخلف، لم يبق له من الحضارة سوى هيكل متداع، ولا من الدين الا بعض المظاهر والقشور التي انزوت في الكتاتيب وأركان التكايا والزوايا، بينما التعليم المدني خاضع للجاليات الأجنبية، وما يتبع ذلك من فساد الحكم، وانهيار الاقتصاد.

لقد أزعج ذلك الباي أحمد باشا مولى خير الدين، فحاول إدخال بعض النظم على هياكل الإدارة، وصادف ذلك اهتمام الدولة العلية على عهد محمود الثاني باقتباس بعض النظم الأوروبية، وتطبيقها في مختلف ولايتها، ومن بينها تونس.

وبمعونة خير الدين استطاع الباي أن يشجع الثقافة، وينظم الجيش والإدارة، ويخفف الضرائب، ويلغي الرق.

وفي هذه الأثناء ألحق خير الدين بالحاشية، وصحب الباي في زيارته لملك فرنسا، ثم عين أميرا للواء، ووكل إليه بعض المهام العسكرية والاقتصادية الخطيرة، وكلف بإصلاح أوجه الفساد الإداري والانحرافات السياسية في البلاد.

وقد اقتضت بعض هذه المهام أن يقيم في فرنسا ثلاث سنوات متصلة، حيث واتته الفرصة لتوسيع آفاق ثقافته، والتعرف على أعلام أوروبا وبلدانها وأسباب تقدمها.

وتداول كبريات الوظائف. فعين وزيرا للحربية. ثم رئيسا للوزراء، كما تداولته العقبات التي اعترضت طريقه الإصلاحي. فترك الحكم، وعكف على تدوين تجاربه في كتاب حال فيه تطور المجتمعات المتقدمة، وسماه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ».

وظل خير الدين بعيدا عن الحكم سبع سنوات استشرى فيها الفساد ووقع فيها الانيهار الاقتصادي فاستدانت الحكومة بفوائد ربوية باهظة اضطرتها لفرض ضرائب عالية، مما فجر الثورة الشعبية المشهورة بقيادة علي ابن غذاهم.

وخوفا على تونس من تفاقم الأمور حولها، وانقضاض الاستعمار الفرنسي الذي داهم جارتها الجزائر — كلف الباي خير الدين برئاسة اللجنة المالية التي شكلت لتسوية ديون تونس، فأنقذها من الانهيار الاقتصادي والاستعمار السياسي، وقام بتوثيق العلاقات بينها وبين الدولة العلية. فعينه الباي وزيرا أكبر الى جانب رئاسة اللجنة المالية.

واستيقظت سعايات الناقمين على خير الدين، وعلى الإتجاه الإصلاحي عامة، فنحي عن الحكم، وصودرت حريته، مما جعله يفكر في الهجرة، وحينئذ استدعاه السلطان عبد الحميد الذي كان قد اطلع على آرائه الإصلاحية في كتابه « أقوم المسالك »، فعينه رئيسا للجنة الاقتصادية، ثم عينه صدرا أعظم للدولة العلية، لكن قلبه ظل معلقا بتونس، متابعا لأحداثها، وقد حزن حزنا شديدا عندما علم باحتلالها على أيدي الفرنسيين، وظل حزينا عليها حتى فارق الحياة.

ولقد كان خير الدين طاقة فكرية ووطنية وإصلاحية جعلته من أعلام القرن التاسع عشر، ووضعته على رأس المصلحين العرب والمسلمين في فترة كانت تموج بالتقلبات العالمية الخطيرة، فكان من حسناته أن أصدر أول دستور في البلاد الإسلامية كلها، هو عهد الأمان. (1)

وكان أعظم تراث فكري وسياسي واجتماعي خلفه خير الدين، بل خلفته هذه الفترة هو كتاب « أقوم المسالك » الذي حلل فيه أحداث العالم الإسلامي على ضوء الحركة التقدمية التي شملت الدول الاوروبية، وجعلها تسبق الشرق بمراحل بعيدة.

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه صدر عن مصلح عربي مسلم، وحوى أفكارا سياسية تقدمية في فترة مبكرة من حياة الشرق الفكرية المتخلفة.

وتذكرنا سيرة خير الدين بحياة ابن خلدون في عناصر كثيرة مشتركة، من بينها الآراء الثورية الجريئة، والدعوة للانقضاض على التقاليد البالية، وعلى أسباب التخلف التي تحيط بالعالم الاسلامي، كما يتشابهان في إنتاجهما الفكري التقدمي بالنسبة لعصريهما، فقد لفت كتاب خير الدين أنظار العالم كله، وترجم فور صدوره الى العديد من اللغات الأوروبية، وما يزال يجد صداه حتى الآن، ويعتبر من مفاخر الفكر التونسي، كما يعد مرجعا مبكرا

---

(1) لم يصدره خير الدين ، وانما صدر بمرسوم من الباى محمد ، وكان خير الدين من دعاه اصداره ومن أعضاء مجلس الشورى الذى جاء به الدستور .

للدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحوله تدار الرسائل والبحوث الجامعية.

واذا كان الدارسون التونسيون يعلقون الأهمية الكبيرة على مقدمة هذا الكتاب وحدها لما حوت من أفكار وآراء ذاتية، واذا كانوا يرون أن الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن البلاد الأوروبية التي زارها فإن بعض الباحثين في المشرق قد كشفوا في صلب الكتاب عن نظريات سياسية عربية أصيلة في الادارة السياسية لم تتوصل اليها أوروبا الا في أوائل القرن العشرين.

في هذا الكتاب ينادي خير الدين بالقضاء على الاستبداد والحكم المطلق، ومقاومة الدكتاتورية، كما يرى أن المبادىء الإسلامية هي أصلح الأنظمة للمجتمع الحر العادل، كذلك يرى أن يجمع العالم الإسلامي بين روح الاسلام وما في المدنية الحديثة من عوامل التقدم كما كان يحبذ النظام الرأسمالي، ويدعو الى التعليم المهني.

وقد ترك خير الدين الى جانب ذلك بذرة الحرية والإصلاح والتقدم التي ما تزال تونس تحمل شعلتها، وما يزال تلاميذه يسيرون على دربه في الحرية والاستقلال والتقدم، ولا ينكر أبناء تونس أن آراء خير الدين وما فيها من وطنية، وما استلهموه من مبادئها الإصلاحية قد عصمتهم من الغرق في دوامة التجهيل والتغريب، ومنحتهم حصانة المقاومة ضد الاستعمار الرهيب الذي انتصروا عليه.

بيـــــرم الخـامس

أما الشخصية التونسية الثانيـة في مجال الاصلاح فهي شخصية محمد بيـرم الخامس، الذي عاش فترة ما بين الاربعينـات والتسعينات من القرن الماضي، ويعد من أحرار العالم الاسلامي، فلقد نضجت اهتماماتـه بالسياسة والإصلاح شؤون الحكم في وقت مبكر، وتولى مشيخة بعض المدارس الكبرى وهو ما يزال في شرخ الشباب، كما تولى التدريس في جامعة الزيتونة، فبث في تلاميذه روح التمرد والنقمـة على الأوضاع السائدة في العالم الاسلامي، ووجه المثقفين الى الإصلاح، وقد رحل في أنحاء الشرق والغرب، واستقـر بمصر، حيث أصدر جريدة « الاعلام »، وتولى القضاء وبعض المهام السياسية، وساهم في النهضة الفكرية، وألف في الفلسفة والعلوم الشرعية والسياسية، وأبرز مؤلفاته كتاب « صفوة الاعتبار »، وهو موسوعة في السياسة والتاريخ والرحلات ووصف البلدان و مجتمعاتها وسياستها.

وقد مارس الاصلاح من جذوره، إذ كان يرى أن إصلاح التعليم هو البدايـة، كما نادى بإصلاح الأخلاق، وتطبيق النظم النيابيـة.

وهو من أنصار خير الدين ومؤازري دعوتـه، وقد استعـان به خير الدين في تنظيم التعليم والأوقاف، وتولى بعد خير الدين إصلاح القضاء، وتنظيـم المستشفيـات وحاول إصلاح نظم الحكم.

والتقى في الشرق بأقـطاب الفكـر والسياسـة، أمثال الشريف حسين، ومدحت باشا، وسعد زغاول، وأديب إسحق، وسليم نقاش.

وخلاصة آرائه تتركز في الرجوع الى مبادىء القرآن، وتطهير الدين من البدع، وفتح باب الاجتهاد، والانتفاع بثمرات العلم الحديث، وتجديد أساليب التعليم.

عبد الحميد بن باديس

أما عبد الحميد بن باديس الذي عاش بين عام 1889 وعام 1940 فلم تعرف الجزائر خطيبا يماثله في البلاغة وقوة التأثير في الجماهير.

كان من الرواد الذين فجروا الثورات، ودفعوا شعوبهم الى ميادين التقدم، وقد استمسك بعروبة الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الذي كاد يجتاحها الى الأبد، وبذلك أصبح أبا الجزائر ومعلمها.

ولد ابن باديس في قسنطينة بالجزائر، والتحق بالزيتونة في تونس، وفيها تخرج، وقام بالتدريس لطلابها.

وممن تأثر بهم البشير صفر، والثعالبي في تونس، والطاهر الجزائري في دمشق، ومحمد عبده، وجمال الدين الافغاني، وعبد الرحمان الكواكبي، ومحمد إقبال، وقاسم أمين (1) على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم في الإصلاح.

وقد اصطنع في سبيل تحقيق أهدافه الإصلاحية مختلف الوسائل، كفنون الأدب، والصحافة، والخطابة، ولكي تظل الجزائر عربية مسلمة كان لا بد من بعث الحركة الدينية التجديدية، ونشر اللغة العربية في جميع مجالات الحياة.

---

(1) لا تظن ان باديس تأثر في شيء بقاسم أمين . كما نشك أيضا في انه تأثر بجميع المذكورين .

جمال الدين الافغاني

وأما جمال الدين الأفغاني، فالى جانب ما هو معروف عنه من معلومات شائعة ركز على دوره الرائد في علاج أزمات العالم الإسلامي. ودعوته الى التجمع تحت ظلال الجامعة الاسلامية، وكانت سياحاته في جميع أنحاء القارات ذات أثر فعال في النهوض بالعالم الإسلامي. غير أن دوره في مصر، والتقاءه بمحمد عبده، وتأليف جمعية العروة الوثقى، وتعاونهما على إيقاظ العالم الاسلامي. وتنقية الاسلام من الخرافات. وإعلان الثورة على الاستعمار والإقطاع - كان من أكبر الأدوار التي لعبها جمال الدين الافغاني في حياته كلها.

محمد عبده

والحديث عن جمال الدين لا بد أن يستدعي الحديث عن تلميذه وحواريه محمد عبده، لأنهما لعبا دورا مشتركا في حياة الأمة العربية والعالم الإسلامي، بحيث يكمل كل منهما الآخر.

غير أن المؤلف أبرز شجاعة محمد عبده، وجرأته في الجهر بآرائه، وإقدامه على التجديد، وحملته على الجمود والرجعية، كما تحدث عن أدواره الدينية والسياسية، وعن مواقفه من إصلاح التعليم، وما لقيه من تكريم الهيئات في مختلف أنحاء العالم، وما صادفه من عقبات في سبيل تحرير الفكر، وتطهير الدين، وتحرير الأساليب الأدبية من بقايا عصور الانحطاط، وتقويم أسلوب الصحافة، وتصحيح أفكار المستشرقين عن الدين الإسلامي، ورد تهجماتهم عليه.

غير أن المؤلف وقع في التباس صغير عند حديثه عن الحركة التجديدية التي قام بها محمد عبده، فقد اشتبه عليه اسم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، مؤلف كتاب « محمد عبده » في سلسلة أعلام العرب، وعباس محمود، مترجم كتاب « الاسلام والتجديد في مصر »، وهما شخصان مختلفان.

وهكذا يقدم لنا الباحث التونسي رشيد الذوادى في هذا الكتاب نماذج جديدة من أعلام الفكر والإصلاح، تجمعهم نزعة الإصلاح، وإرادة تغيير المجتمع، في فترة حرجة من حياة الأمة العربية والعالم الاسلامي .

تجمعهم كذلك المعاصرة، كما تجمعهم العروبة والاسلام مهما اختلفت بهم الديار، ويثقل ضميرهم الواجب نحو الوطن، والالتزام بحماية الدين.

والقدر المشترك بينهم يتمثل في حرية الرأي، والشجاعة في الجهر بالحق، والحرص على لغتهم والتقاليد الصالحة للمجتمع الاسلامي الواعي.

ولقد بذل المؤلف الكثير من الجهد لكي يجمع أطراف المعلومات عن هؤلاء الاعلام، سواء في جمع المراجع الكثيرة والمبعثرة في أنحاء العالم أو في تنقية هذه المعلومات مما أدخل عليها لتشويه سيرة هؤلاء الأعلام، سواء من الأدعياء أو الحاقدين وبهذا استطاع أن يقدم الينا هؤلاء الأعلام بالصورة اللائقة بهم، وبما بذلوه من جهود مضنية في سبيل مجتمعاتهم، وبالصورة التي تليق بالمؤلف كباحث ألزم نفسه بأن ينصف هؤلاء المجاهدين من

قالـة السوء، ومن الحملات المغرضة التي وجهت اليهم في حياتهـم كثيـرا. وبعد رحيلهم أكثـر وأكثـر.

ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فإن كلمة الحق تثقل ضمائر الذين يتحرون فيهـا وجه الصواب بالجمع والتدقيق والموازنـة والتحقيق، حتى تبدو كلمـة الحق في المكانة الجديرة بهـا.

ويبدو من عديد المراجع وأشتـات المصادر التي استنطقهـا المؤلف، ومن الموازنـات والتدقيق وتقليب وجوه الرأي، والتحقيقـات والتصويبات التي تحراهـا الذوادي أنـه يحترم التاريخ، ويحترم قلمـه، وقبل هذا وذاك يحترم قارئـه، و في سبيل ذلك يهون كـل جهـد يبذلـه الباحث لـكي يؤدي واجب الحقيقة، ولـكي يكون جديرا باحتـرام قـرائـه، وهو الأمـر الذي نغبط من أجلـه الذوادي، ونبـاركـه عليـه(1).

(1) نشر المقال في مجلة الفكـر عدد ماي 1974 وكان الكتاب قد طبع في تونس عـام 1973 .

فهرس الاعلام والجماعات

ـ أ ـ

— ب —

— ت —

— ث —

— د —

— ر —

— ز —

— س —

— ش —

— غ —

— ف —

— ق —

— ك —

— م —

ــ ن ــ

— هـ —

— ي —

فهرس الكتب والمجلات والقصائد والمقالات

ـ ا ـ

— ب —

— ت —

— ث —

— ج —

— ح —

— خ —

— د —

— ر —

— ك —

— ل —

— م —

المدن والاماكن والجمعيات والمنظمات

— ا —

— ب —

— ل —

— م —

— ن —

فهرست الكتاب

انتهى طبع هذا الكتاب بمطبعة
الاتحاد العام التونسي للشغل ـ تونس
رجب 1397 / جويلية 1977

عدد الناشر : 77 . 18 . 100

رضوان ابراهيم — مؤلف هذا الكتاب — كاتب مصري يكاد ان يكون الكاتب الوحيد في المشرق الذي عايش الادب التونسي ومارسه قراءة وعلاقات شخصية مع العديد من ادبائه حتى امكن له ان يكتب عنه البحوث والمقالات والاحاديث المختلفة للصحف والمجلات والاذاعة العربية، ثم تخصص في الترجمة من الروسية الى العربية، فكان اهتمامه منحصرا بالدرجة الاولى الى ما كتب عن تونس واعلامها وادبها في الكتب والمجلات الروسية.

وله فضل السبق والمبادرة بما كتب او نشر في روسيا من دراسات وكتب عن الادب التونسي ورجالاته.

وقام رضوان ابراهيم بترجمة اضخم كتاب في روسيا عن ابن خلدون [illegible] عن «العمران البشري في مقدمة ابن خلدون» ... وتتولى الآن الدار العربية للكتاب طبعه ليصدر قريبا في سلسلة مكتبة ابن خلدون.

ونظرا لقيمة هذه المقالات، لا سيما ما ترجمه من الروسية ونظرا لعلاقتها الوثيقة بحركة التأليف والتطور الادبي في تونس.

وتحية لكاتبها واعتزازا بنضاله الذي استطال ربع قرن في خدمة الادب التونسي في المشرق العربي ... رأينا ان نجمع في كتاب — كما كان يتمنى كاتبها — وان نعطي نفس العنوان الذي اختاره لها.

« الناشر »

الدار العربية للكتاب — [illegible] — عمارة [illegible] — [illegible]
شارع غومة المحمودي، طرابلس — ص.ب [illegible] — هـ [illegible]
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية. الفرع الرئيسي
23 نهج ليبيا — تونس ص. ب. 1103 — الجمهورية
التونسية هـ : 288.668

الثمن : 0.900 د.ل — 1.300 د.ت